فاعلم انه لا اله الا الله

توحيد القلوب

الاخلاص و اليقين

الطاعة

الخوف و الخشية

الحب و البغض في الله

النافع هو الله

تعظيم الله عز و جل

الكفر بما سوى الله

الرجاء

الولاء و البراء

الرزق بيد الله وحده

الحب و القبول

التوكل على الله

الإنابة الى الله

" اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ "

إهداء

إلى أبنائي

أوصيهم بما وصى به الأنبياءُ والصالحون:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

(لقمان: ١٣)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

(البقرة: ١٣٣)

تنويه هام للقارئ.

إن كتاب توحيد القلوب معني بإخلاص كلمة التوحيد للّه رب العالمين من كل شرك وشائبة في قلب المسلم، ومعني بشرح حقيقتها ليجعلها المسلم نصْبَ عينية في نفسه ولنفسه، وليس أبدا ليُنصّبَ نفسه حَكَماَ على ايمان الناس وإسلامهم، فهذا من أخطر المهالك والمسالك التي تهوي بالمسلم إلى دركات النار وهو لا يشعر.

إن كل شائبة ولو يسيرة تصيب كلمة التوحيد تكون شركا، وإن منه كدبيب النمل، ولكن ليس كل شركٍ يقع المسلم فيه يُخرجه من ملة الإسلام، ولذلك فالمقصود بالشرك الوارد في الكتاب ليس دائما هو الشرك الأكبر، ولكن المقصود الأساسي هو تصفية كلمة التوحيد وإخلاصها للّه تعالى إخلاصا تاما يكون به المسلم مؤهلا لما أخبر به في الرسول صلى اللّه عليه وسلم في حديثه: إنَّ اللَّه قد حرَّم على النَّارِ من قال لا إله إلّا اللَّه يبتغي بذلك وجْه اللَّه.[1]

[1] (أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت (٩٢/١)، رقم: (٤٢٥)

مقدمة و تمهيد

الحمد لله فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، خالق كل شيء فقدره تقديرا، الحمد لله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند ولا ولد. يقول الله تعالى:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾(آل عمران: ١٨)

أما بعد

إن توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبودية، هو الباب الوحيد الذي يدخل منه العبد على الله سبحانه وتعالى، وليس هناك باب غيره، وهو أعلى مقامات العبودية وأجلّها على الإطلاق ولو لم يكن معه كثير عمل؛ ولذلك فهو أعظم وأخطر أمرٍ على الإطلاق في علاقة الإنسان بربه، وزيادة على ذلك خطرا فإن فقدان ركنٍ واحدٍ منه لا تَجبُره أي عبادة أخرى من شتى العبادات وأجلّها، مثل الصلاة والصيام والصدقة والجهاد، مهما أكثر منها العبد.

فصلوات لا تتخطى الأوقات مع قيام بالليل والنهار بالسنين، وصيام بالليل والنهار على مدى الدهور، وصدقات لله كالجبال، وجهاد في سبيل الله لا ينقطع ساعة من ليل أو نهار، كل ذلك لا يَجبُر خللا واحدا في التوحيد، وشرك بالله تعالى.

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾(النساء: ٤٨)

وإن توحيدا تاما لله تعالى يُنجِي العبدَ بوعد الله من عذاب النار، مهما أتى معه من أعمال، كما جاء في حديث أنس ﷺ، عن رسول الله ﷺ:

«ما مِن عبدٍ يشهدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ الله، وأَنَّ محمّدا عبدُهُ ورسولُهُ، إِلا حرَّمهُ الله على النّار»[٢]

وعن عِتْبَانَ بن مالك الأَنصاريّ، أَن رسول الله ﷺ قال :

«إنَّ اللَّه قد حرَّم على النَّارِ من قال لا إله إلّا اللَّه يبتغي بذلك وجْه اللَّه»[٣]

ولذلك كله فإن استكمال التوحيد في قلب المسلم وتمامه ينبغي أن يكون غاية كل مسلم في كل لحظة من حياته، فلا يغفل عنه أبدا، ولا ينشغل عنه بأي عبادة أخرى. فهو نجاته ومدار دينه وحياته.

أما في جانب الأمة والدولة فإن التوحيد هو شرط التمكين للمؤمنين، بوعد من الله سبحانه وتعالى، كما جاء في قوله تعالى:

٢ (رواه مسلم- كتاب الإيمان- ١٠- حديث رقم ٣٢/٥٣)

٣ (أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت (٩٢/١)، رقم: (٤٢٥)

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾

(النور: ٥٥)

وها هي أمتنا اليوم تنطق بلسانها "أشهد أن لا اله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله"، فما الذي حدث لها ؟! **ولماذا هي اليوم على تلك الحال ؟!!.**

لقد ظلت الأمة منذ عهد رسول الله ﷺ وبعده لزمن طويل تحرص على تحصيل كلمة التوحيد **"لا إله إلا الله"** بكافة أركانها قولا وعلما وقلبا وعملا، وكان العلم بها وبأركانها هو همُّ العلماء الأول حينذاك، لعلمهم أنها أساس العلم والدين والإصلاح والأخلاق كلها، وفقدانها يعني فساد الدين وفساد الأخلاق وعدم الانتفاع بالعلم إلا قليلا. وظلت الأمة برغم ما أصابها من هزاتٍ كادت تُهلكها تعود فتقف على قدميها عزيزة مهابة بين الأمم، وذلك لأن المسلمين حينها ما زال التوحيد بكل أركانه في قلوبهم عامرا نقيا؛ فلا ولاء إلا لله ودين الإسلام، وقبول تام لحكم الله وشرعه، وتعظيم كامل لشعائر الله وكتبه ورسله، وإيمان يُصدّقه العمل بأن الله هو الرزاق، وهو النافع ولا يَضر سواه، ولا يُرجَى في نفع سواه....

حتى تتالت على الأمة الإسلامية قرونٌ ضعُفَ فيها العلم بكلمة التوحيد وأركانها، ولم يعد المسلمون يعلمون منها ومن حقها ولوازمها وأركانها إلا القليل، بل إن أكثر المسلمين اليوم ليظنون أن امتحانهم في كلمة التوحيد قد انقضى بنعمة الله عليهم بأنهم ولدوا مسلمين، وما عليهم بعد ذلك إلا إتيان بعض الأعمال الصالحة والأفعال الخيرة ولهم الجنة، وكل ذلك لجهلهم بحق "**لا إله إلا الله**" ولوازمها، ولو علموها لعلموا أن امتحانهم في كلمة التوحيد لم ينتهِ بأنهم ولدوا مسلمين، بل لا ينقطع عنهم في أي يوم من أيام حياتهم، وهو

حاضر في أفكارهم وكل تصرفاتهم، ولكنهم للأسف غير واعين لذلك، حتى إن منهم اليوم من نقَّضَها وهو لا يدري ولا يشعر، مثل هؤلاء الذين يكرهون تطبيق شرع الله ويقولون لم يعد مناسبا لعصورنا، وآخرين كرهوا بعض أحكام شرع الله مثل التعدد وتحريم الربا، ومثل هؤلاء الذين استحلوا الفسق والفجور باسم الفن والإبداع، وآخرين والوا النصارى واليهود وناصروهم على المسلمين، **فكيف وصل الحال بهؤلاء إلى هذه الدرجة ؟ وكيف وصل الحال بالأمة إلى أن ظهر وكثُر فيها مثل هؤلاء ؟!!.**

لقد نظرت فوجدت كثيرا مِن المسلمين يشهد الشهادتين دون أن يعرف من معناها إلا القليل، فقد لا يعرف من معناها إلا مجرد الإيمان بأن الله موجود وهو خالقهم ويرزقهم، وهو إله واحد لا يجوز أن نسجد بالجوارح أو نركع إلا له، وأما غير ذلك فقد لا يدري من معانيها وأركانها شيئا..

فمن دواعي الأسى أن تجادل بعض المسلمين في ناقض من نواقص الإسلام وكلمة لا اله إلا الله التي يتلفظون بها كدعاء الأموات وطلب الحاجات منهم لتُفهمهم أن ذلك مما يخالف معنى لا اله إلا الله.

ومن دواعي الأسى أن يجهل كثير من المسلمين أن الولاء والبراء ركن أصيل من أركان كلمة التوحيد، ومن ألزم معانيها، ولا يُدرك أحدهم أن فقدان هذا الركن الأصيل ينقضها.

وإنه من دواعي الأسى أن الإيمان بأن الله هو الرزاق لا يصل في قلوب بعض المسلمين إلا عِلما تكذبه أفعالهم وتصرفاتهم.

ومن دواعي الأسى أن جلّ المسلمين لا يفهمون من ركن الرجاء إلا الرجاء في رحمة الله، ولا يدري شيئا عن أن احتواء القلب بالرجاء في نيل نفع من عند الخلق أو دفع ضر مما يخالف ركن الرجاء الذي لا يصح ولا ينبغي أن يكون إلا لله.

وإن أمعنا النظر فقد يكونوا معذورين، فكثير من المسلمين ليسوا بعرب، والعرب أنفسهم قد مرت القرون عليهم وفقدوا كثيرا من بلاغتهم وعلمهم باللغة والفصاحة ودقة المعاني، وأصبحوا لا يدركون من معاني الكلمة إلا ظاهرها، فوجب على علماء الأمة في هذا الزمان أن يقوموا ببيان معنى "لا إله إلا الله" للناس وشرحها شرحا وافيا يناسب الناس في زمانهم ولا يملّوا من ذلك، وقد قام علماؤنا القدامى على مر السنين بشرح كلمة التوحيد وألفوا في ذلك الكتب والمجلدات، **ولكن؛**

ما قام به العلماء أنهم قسموا التوحيد إلى أقسام ثلاثة: توحيد الذات، و توحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وآخرين قسموا التوحيد إلى أقسام ثلاثة أيضا وهي: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات. ثم بدأ العلماء بشرحٍ مع قليل من التفصيل تارة ومع الإجمال تارة لكل واحد من الأقسام الثلاثة، ومنهم من كان يفصل تفصيلا لنقاط ويجمل في نقاط أخرى، وكثير منهم وعامتهم يفصّلون في قضية الشرك بالله باتخاذ القبور والتوسل بالأولياء أو اتخاذ التمائم وما شابه ذلك، ويفصّلون في نواقض كلمة التوحيد القولية والفعلية، كما وجدت أن كتب العقيدة إما مستفيضة جدا قد لا يقدر عوام الناس على استيعاب العقيدة منها أو مختصرة جدا غير وافية لكل أمور العقيدة، ولا تكفي كثيرا من الناس أن يعي منها ما ينبغي لعقيدته...هذا ما لاحظته في كثير من الكتب وإن اختلف بنيانها وطريقة تأليفها.

ولاحظت أن الأسلوب المتبع في شرح كلمة التوحيد يكاد يكون واحدا لا يتغير، وبطريقة سرد للعبارات قد لا تصل لقلب من يقرأها إلا من تلقاها من قبل سماعا من عالم أو داعية، وقد لا يعي القارئ أحيانا كل ما تحتويه العبارات من معاني التوحيد.

وعلى سبيل المثال عندما نقول أن " **الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك لغير الله** "

فهل يعي قارئ هذه الكلمات معنى أن يطاع الله هيبة وإجلالا، فيفهم ما يجب وما لا يجب من القول كي لا يتعدى على جلال الله عز وجل؟. ولقد رأيت بعيني وسمعت بأذني دعاةً إلى الله وممن يوصفون بأنهم ملتزمون أو متدينون يُدخلون اللهَ ورسولَه أو القرءان أو شعيرة من شعائر الله في نكاتهم ودعاباتهم!!! فلماذا لم يفهموا عند قراءتهم لهذه الكلمات وكتب التوحيد أن ما يفعلونه لا يليق بجلال الله عز وجل الإله الذي شهدوا أن لا إله غيره؟!!

هل بقراءة هذه الكلمات يعي قارئها معنى الرجاء في الله، وما يعنيه من أنّ تعلق القلب بالرجاء في غير الله في نيل نفع دنيوي هو من الشرك ؟؟

إن العلماء ما زالوا يشرحون التوحيد وهم يظنون أن قارئها سيفهم وحده ما وراء الكلمات كما كان يفهمها العرب الأولون على عهد النبوة والسلف الصالح، ولم يلحظوا أنه مع تتابع القرون والأزمنة قد تغير حال المسلمين والعرب، ولم يعودوا بهذه البراعة في إدراك المعاني العميقة للكلمة مثلما وقف أحدُ الصحابة وهو "**جرير بن عبدالله**" يشتري فرسا، فقال البائع بثلاثمائة درهم، فإذا الصحابي يقول له وهو المشتري: فرسك خير من ثلاثمائة درهم أتبيعه بأربعمائة ؟!! فيقبل البائع، ثم يقول الصحابي بل تستحق أكثر من ذلك ويزيد من سعرها!! ثم لم يزل يزيده مائة فمائة، وصاحبه يرضى، وجرير يقول فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها!!! ولما سُئل عن ذلك قال:

إني بايعت رسول الله على النصح لكل مسلم. فانظر إلى فهم الصحابي لكلمة النصح وفهْمِنا نحن لهذه الكلمة لو قرأناها في الحديث الذي رواه ذلك الصحابي الجليل:

عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال: **«بايَعْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ على إقامِ الصَّلاةِ، و إيتاءِ الزَّكاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»**[٤]

فهل كنا سنفهمها بمجرد قراءة الحديث كما فهمها الصحابي بأنها إرادة الخير لكل مسلم إرادة حقيقية عملية، وأن يبذل له ما هو أنفع له، أم سيقتصر فهمنا على بذل النصيحة كلاما للمسلمين !!؟

إن ضعف المسلمين اليوم في العلم بكلمة التوحيد وأركانها هو سبب ضعفهم في القيام بحقها، وبسبب ضعفهم في القيام بحقها ضَعُفَت الأمة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم؛ أمة متمزقة قد انتشر فيها الفساد والابتداع والانحراف عن دين الله، وتبع المسلمون النصارى واليهودَ وقلّدوهم حتى دخلوا معهم جحورهم العفنة، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

ولقد هب العلماء والدعاة والمصلحون فرادى وجماعات لإنقاذ الأمة وما زالوا يحاولون إصلاحَها، ورأْبَ ما تصدع فيها، وكلما بدا لهم بادرةُ صلاحٍ وأملٍ في أن تقوم الأمة من كبوتها انكفأت مرة أخرى لوضعٍ أشد مما كانت عليه؛ برغم كثرة الداعين والمصلحين!!!. **فلمَ ذلك ؟!**

لم ذلك والعلماء والدعاة والمصلحون الصادقون بالملايين بين المسلمين، وهم في الأمة يدعونهم بالليل والنهار إلى الاستقامة على دين الله وتوحيد الله عز وجل؟!!!

٤(رواه البخاري في صحيحة كتاب مواقيت الصلاة باب البيعة على إقام الصلاة- حديث رقم ٥٢٤)

كل ذلك لأنهم جميعا لم يستطيعوا حتى الآن أن يُعيدوا الأمةَ لصفاء التوحيد الخالص لله رب العالمين كما كانت، ولم يستطيعوا تعليم الناس ما تعنيه حقا شهادة "**لا إله إلا الله**"، بل إن البعض منهم لم يدرك أن أصل الأمراض التي أصابت الأمة جاءت من قِبَلِ ما أصابها في أركان شهادة التوحيد، ولم يشعروا أن أصلَ كل فسادٍ يرونه في الناس يرجع في أصله إلى تضييع ركن من أركان كلمة التوحيد فيهم، حتى هؤلاء الذين وضعوا التوحيد على رأس دعوتهم لإدراكهم أهميته وخطورته أكثر من غيرهم لم يهتموا في تعليم التوحيد أن يعطوا جميع أركان التوحيد نفس القدر من الاهتمام الذي أعطوه لمحاربة البدع والشركيات الظاهرة، مثل دعاء الأموات والذبح لغير الله– وهي أمور عظيمة لا شك في ذلك ولا خلاف–ولكنهم لم يعطوا كل أركان التوحيد مثل ما أعطوه لها**[٥]، وكان ذلك بسبب عدم إدراكهم على وجه الدقة والبصيرة لمدى تأثير كل ركن من أركان التوحيد على حِدةٍ في صلاح الأمة وفسادها، وبرغم أهمية ما يدعون إليه إلا أنه لا يُغني شيئا عن تضييع ركن آخر من أركان التوحيد، **لأن ضياع ركن واحد من أركان التوحيد هدم للتوحيد كله**.

فلم يتبين لهم مثلا أن الفساد الناتج عن ضعف عقيدة المسلمين في أن الله هو الرزاق أعم وأكثر انتشارا من الفساد الناتج عن الشركيات الظاهرة، فانشغلوا بالنسبة الأقل من الناس (وإن كانوا كثيرين) عن ما أصاب الغالبية العظمى منهم، ومثل ذلك ركن الرجاء في الله وحده، واليقين في أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، وهذان الركنان الآخران هما في الأصل منشأ أكثر تلك الشركيات...

[٥] ** أغلب الظن والله أعلم أن سبب انشغالهم بتلك البدع والشركيات هو شدة انتشارها في القرون الماضية الأخيرة عن ما هي عليه الآن، في حين كان غيرها من أركان التوحيد ما يزال محفوظا في قلوب عوام المسلمين ساعتها، مثل الرضا بحكم الله وشرعه، ومثل الحب والقبول لكل ما جاء في الكتاب والسنة، وتعظيم الله ورسوله والعلماء في قلوب العوام، ولم ينتبهوا أنها بدأت تضعف في قلوب كثير من المسلمين في القرن الأخير وتحتاج منهم ما هو أكثر.

وحتى هؤلاء الذين ارتفعت هِمَمُهم لإدراك شمولية الدين كله في دعوتهم لم يُعطوا التوحيد حقه الواجب من دعوتهم وإن ظنوا غير ذلك، وكان همهم الأكبر هو الدعوة إلى الاستقامة بمعنى الالتزام بشعائر الإسلام ومقاومة الفساد والظالمين وتحرير المقدسات، ولم يدركوا أيضا مدى تأثير ركنٍ مثل الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، واليقين في أن الرزق بيد الله وحده على إدراك ما يريدون تحقيقه في الأمة من إصلاحٍ ومحاربةٍ للفساد، ومدى تأثير هذه الأركان على نتيجة الصراع بين الحق والباطل، غير ما عانوه من الناس في صراعهم مع الباطل بسبب ضعف هذه الأركان في قلوب عوام المسلمين، فطال من وراء ذلك بلاؤهم وتأخر النصر عنهم وعن الأمة**[٦]، **ولا نصر للأمة إلا أن تستكمل أولا في نفسها جميع أركان التوحيد بلا اهمالٍ لأي ركن منها.**

من أجل ذلك كله كتبتُ هذا الكتاب، لأشرح فيه كافة أركان التوحيد، ولكن في صورة بسيطة يستطيع بها المسلم بإذن الله إدراك المراد منها، وهمّي الأكبر في ذلك أن يعي المسلم كل ركن من أركان كلمة التوحيد بقلبه قبل أن يحفظها بعقله، وعلى ذلك كانت بِنية الكتاب قائمة، لإيصال معنى شهادة التوحيد ومعنى أركانها إلى قلب المسلم، ليقوم بتحقيقها كما أراد الله منه، ليفوز بالجنة وينجو من النار.

وأخيرا أريد أن ألفت نظر القارئ إلى سر من أسرار العقيدة :

إنه ما من مسلم إلا وهو يظن أنه على عقيدة صحيحة، ويظل كذلك واهما نفسه أنه عارف بالله تعالى حتى يذهب فيقرأ ويتعلم عقيدته.

فإذا ذهب يقرأ فيها...

---

[٦] ** الذي يظهر عندي والله أعلم أن ذلك من حسن ظنهم بالناس وما عليهم من خير وصلاح، فلم يلحظوا شدة ما أصاب الناس من ضعفٍ في أركان التوحيد وخاصة تلك التي ذكرتها.

....حينها يعلم أنه ما زال يحتاج إلى أن يتعلم عقيدته !!

وكلما قرأ، علم من "لا إله إلا الله" ما لم يكن يظن أنه يجهله !!

وكلما قرأ، علم ما كان يرتكبه من أخطاء في عقيدته وهو لا يدري !!

وكلما قرأ، تفاجأ بما شاب عقيدته من شوائب وضعف وهو لا يشعر !!

وهذا الذي حدث لي، وهذا الذي كان فاتحةً ومبتدأً لتسطير هذا الكتاب، والذي كانت من ضمن رغبتي منه في البداية أن أعلّم أولادي التوحيد فتعلمته أنا معهم، وقمت بكتابة هذا الكتاب، لا لأناظر به كتب العقيدة الأخرى، فهيهات بين الثرى والثريا، ولكني أنقل منها علما وأضعه في أسلوب سهل أرجو الله أن يكون أقرب إلى عقل القارئ وقلبه مهما كان علمه.

وإني أوصي القارئ أن يكون هَمُّه عند قراءة الكتاب أن يقف عند كل عبارة متأنيا، ليتبين معناها بدقة، ويقف عند كل آية متدبرا لها وما تشتمله من معاني التوحيد، ويعيها بقلبه جيدا- فالقلب هو محل نظر الله تعالى- ثم يتلمس تطبيق ما وعاه في تصرفاته وأفعاله، فذلك هو صدق الإيمان وصدق التوحيد، وصدق قوله "**لا إله إلا الله**".

أسأل الله العظيم لنا الهدايةَ والإيمان، وأن يختم لنا بكلمة التوحيد، وأن تعود أمة الإسلام عزيزة قوية أبية، وأن ينتشر ظل الإسلام على الأرض، وأن يُمكّن الله تعالى لعباده المؤمنين.

وبالله التوفيق: حبيب إسلام

كلمة التوحيد ما بين علمنا وعلمهم

خلق الله تعالى الإنسان لحكمة عظيمة، وألهم نفسه الفجور والتقوى، وأعطاه عقلا وقلبا يتبين بهما، ومن قبلُ فطَرَهُ على التوحيد، وأخذ منه الميثاق على ذلك، ثم لم يتركه فبعث له الرسل ليبينوا له الصراط المستقيم ويدعوه إلى كلمة التوحيد **"لا إله إلا الله"**.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾(الذاريات: ٥٦)

فأصل عبودية الله هو توحيد الله عز وجل، وإخلاص العبادة له، وإنكار عبودية غيره. وهذه العبادة هي العبادة الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل–وأما سائر العبادات الأخرى من صلاة وصيام وغيرها فهي تختلف من شريعة إلى أخرى– وهي العبادة التي لا يقبل الله عملا بدونها مهما بلغ فيها صاحبُها من عمل صالح...

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ ﴾
(الزمر: ٦٥ – ٦٦)

وهي العبادة التي لو أتى الإنسانُ بها خالصةً تامةً يوم القيامة لغفر الله له ذنوبه كلها مهما بلغت، فهي البطاقة التي طاشت منها صحائفُ سيئاتِ عبدٍ حين وُضعت في ميزانه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ يقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: بلى إنَّ لكَ عندنا حسنةً، وإنّه لا ظلمَ عليكَ اليومَ، فيُخرِجُ بِطاقةً فيها أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: احضُرْ وزنَكَ، فيقولُ: يا ربِّ ما هذهِ البِطاقةُ معَ هذه السِّجِلّاتِ؟ فقال فإنك لا تُظلَمُ. قال: فتوضعُ السِّجِلّاتُ في كِفَّةٍ والبطاقةُ في كِفَّةٍ فطاشتِ السِّجِلّاتُ وثقُلتِ البِطاقةُ، ولا يَثقُلُ معَ اسمِ اللهِ شيءٌ»**[٧]

وهي الكلمة التي لا يَعدِلُها ذكر، ولا يَفضُلها عمل، وهي الكلمة التي تميل بالسموات والأرض السبع.

عن أبي سعيد الخدري، ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى عليه السلام: **«يا ربِّ علِّمْني شيئًا أذكُرُك به وأدعوك به قال: قُلْ يا موسى: لا إلهَ إلّا اللهُ قال: يا ربِّ: كلُّ عبادِك يقولُ هذا قال: قُلْ: لا إلهَ إلّا اللهُ قال: إنَّما أُريدُ شيئًا تخُصُّني به، قال: يا موسى لو أنَّ أهلَ السَّمواتِ السَّبعِ والأرَضينَ السَّبعِ في كِفَّةٍ، ولا إلهَ إلّا اللهُ في كِفَّةٍ، مالَتْ بهم لا إلهَ إلّا اللهُ»**[٨]

فبكلمة **"لا إله إلا الله"** يغفر الله ما عداها من الذنوب، وبدونها لا يَقبل الله من الصالحات شيئا.

---

٧ (رواه الترمذي-أبواب الإيمان-١٧-- باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله -حديث حسن غريب– رقم 2639-)

٨ (صحيح بن حبان- باب بدأ الخلق- - ذكر سؤال كليم الله ربه أن يعلمه شيئا يذكره - حديث رقم ٦٢١٨). السنن الكبرى للنسائي-كتاب عمل اليوم والليلة أفضل الذكر، وأفضل الدعاء-حديث رقم 10602- المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح والذكر-حديث رقم 1936. وصححه ووافقه الذهبي).

فما حقيقة هذه الكلمة اليسيرة التي تحمل كل هذا الفضل العظيم الذي لا يعلوه فضل ولا يثقل معها شيء ؟!

لقد بعث الله نبيه مُحَمَّداً ﷺ إلى أمة كانت قد بلغت من البلاغة في الكلام والدقة في المعاني ما كان جدير بها أن تفهم المعنى والمراد من دعوة رسول الله ﷺ ، وكلمة التوحيد **"لا اله إلا الله"**، فقد بلغوا من الشعر والبلاغة وإدراك المعاني العميقة للكلمة ما لم تبلغه قبلها أمة من الأمم، ولذلك فقد تحداهم الله فيما بلغوا فيه شأوا عظيما لم يُدركه غيرُهم، فتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة واحدة منه فعجزوا عجزا تاما، وسجل التاريخ عليهم ذلك، فكان هذا التحدي دليلا على أنه كلام الله عز وجل.

ولبراعة معرفتهم وفهمهم العميق بلغة العرب ولكل كلمة منها كانوا يعرفون حقا ما وراء **"لا إله إلا الله"** من معانٍ إجمالا، وما معنى الإله، وما وراء إفراد الله بالإلهية، وما معنى نفي الإلهية عن غيره سبحانه وتعالى، وما معنى كلمة "**أشهد**"، وما مدلول الإبتداء بـ "**أن لا إله**" قبل إثبات الإلهية لله، وما معنى "**إلا الله**"، ويُدركون ما وراء كل كلمه من معاني، وما وراء ذلك كله من أعمال وتبعات.

ومن أجل ذلك رُوي أن رسول الله ﷺ لما سألوه ماذا تريد؟ قال لهم: كلمةً تدين لكم بها العرب والعجم، فردوا عليه بقولهم قل وأبيك عشر كلمات؟ فقال ﷺ قولوا "لا إله إلا الله" فقال قائلهم أما هذه فلا.

فمن أجل أنهم كانوا يعرفون معنى إفراد الله بالإلهية وما وراء ذلك من تبعات، قالوا أما هذه فلا.

ومن أجل أنهم كانوا يعرفون ما تعني **"لا إله إلا الله"** كان هذا التحول المذهل والانقلاب العجيب الذي كان يحدث في شخصية الصحابي حين يُسلم ويشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن قد نزل من القرآن إلا القليل، لو كان سمعه، ولم يكن إسلامه بعد كثير مناقشات أو شرح من رسول الله ﷺ عن الإسلام وأحكامه وما يعنيه الإسلام لله وما تعنية كلمة التوحيد، بل من كلمات بسيطة يدعوه بها رسول الله ﷺ أو أحد أصحابه إلى الشهادة، مثلما حدث مع أسيد بن حضير حين جلس إلى مصعب بن عمير رضي الله عنهما، فأسلمَ ثم قام من فوره ليحتال على سعد بن معاذ سيد الأوس لكي يذهب إلى مصعب ليسمع منه طمعا في إسلامه، فيُسلم سعد ﷺ لينطلق من ساعته إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وأول ما قال لهم: كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تسلموا فأسلموا جميعا...!!

فانظر إلى قصة إسلامهما:

جاء من أخبر أسيْد بن الحُضيْرِ وسعدَ بن معاذ – وكانا سيِّدي الأوس– أن الداعية المكيَّ قد نزل قريبا من ديارهما، وأن الذي جرَّأه على ذلك أسعد بن زُرَارَة.

فَلَمَّا سَمِعَا بِهِ قَالَ سَعْدٌ لِأُسَيْدٍ: لَا أَبَا لَكَ! انْطَلِقْ إِلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَدْ أَتَيَا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهما أَنْ يَأْتِيَا دَارَيْنَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مِنِّي حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ، هُوَ ابْنُ خَالَتِي وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مُقَدَّمًا.

قَالَ :فَأَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَرْبَتَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِمَا.

فَلَمَّا رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَالَ لِمُصْعَبٍ :هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَقَدْ جَاءَكَ، فَاصْدُقِ اللَّهَ فِيهِ.

قَالَ مُصْعَبٌ :إِنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ.

قَالَ فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تُسَفِّهَانِ ضُعَفَاءَنَا؟ اعْتَزِلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ.

فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ: أَوَ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ.

قَالَ: أَنْصَفْتَ.

قَالَ: ثُمَّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، فَكَلَّمَهُ مُصْعَبٌ بِالْإِسْلَامِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ.

فَقَالَا فِيمَا يُذْكَرُ عَنْهُمَا: وَاللَّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ.

ثُمَّ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ! كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ؟

قَالَا لَهُ: تَغْتَسِلُ فَتَطَّهَّرُ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ ثمَّ تصلى.

قَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ وَتَشَهَّدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: إِنَّ وَرَائِي رَجُلًا إِنِ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ، سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ.

ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى سَعْدٍ وَقَوْمِهِ، وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ.

فَلَمَّا نظر إِلَيْهِ سعد ابْن معَاذ مُقبلا قَالَ: أَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أُسَيْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ.

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى النَّادِي قَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا فعلت؟ قَالَ: كلمت الرجلَيْن، فوالله مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا، وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا فَقَالَا :نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْتَ.

وَقَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ بَنِي حَارِثَة خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ، وَذَلِكَ أَنهم عرفُوا أَنه ابْن خالتك ليحقروك.

قَالَ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُغْضَبًا مُبَادِرًا تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذُكِرَ لَهُ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ، وَأَخَذَ الْحَرْبَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا.

ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمَا سعد، فَلَمَّا رآهما مُطْمَئِنين عرف أَن أُسيْدا إِنَّمَا أَرَادَ أَن يسمعَ مِنْهُمَا، فَوقف متشتما ثمَّ قَالَ لاسعد بن زُرَارَة: وَالله يَا أَبَا أُمَامَةَ وَاللَّهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتَ هَذَا مِنِّي، أتغشانا فِي دَارنَا بِمَا نَكْرَهُ؟

قَالَ: وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ لِمُصْعَبٍ: جَاءَكَ وَالله سيد من وَرَائه قَوْمُهُ إِنْ يَتَّبِعْكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ مِنْهُمُ اثْنَانِ.

فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ: أَوَ تَقْعُدُ فَتسمع، فَإِن رضيت أمرا رغبت فِيهِ قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ.

قَالَ سَعْدٌ: أَنْصَفْتَ، ثُمَّ رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ.

قَالَ: فَعَرَفْنَا وَاللَّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ.

قَالَا: تَغْتَسِلُ فَتَطَّهَّرُ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثمَّ نصلى رَكْعَتَيْنِ.

قَالَ: فَقَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ.

ثُمَّ أَخَذَ حربته، فَأقبل عَائِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ.

فَلَمَّا رَآهُ قَوْمُهُ مُقْبِلًا قَالُوا: نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ.

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً.

قَالَ: فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حرَام حَتَّى تؤمنوا بِاللَّه وَرَسُوله.

قَالَ: فو الله مَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا أَوْ مُسْلِمَةً.

وَرجع سعد وَمصْعَب إِلَى منزل أسعد بن زُرَارَة، فأقاما عِنْدَهُ يَدْعُوَانِ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دَوْرِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ.[٩]

وانظر إلى **عمر بن الخطاب** ﷺ حين قرأ أول سورة طه فشهد بعدها أن لا اله إلا الله، ثم انطلق بعدها إلى كفار مكة يعلن إسلامَه فيهم، وظل يصارعهم حتى أنهكهم وأنهكوه، ثم أشار على رسول الله ﷺ بالخروج وإعلان الإسلام، فخرج المسلمون صفين على أحدهما عمر بن الخطاب والآخر حمزة بن عبدالمطلب، فسُميَ بعدها الفاروق، وكل ذلك وكان بالأمس القريب من أشد أعداء المسلمين ومواليا للكافرين...

و انظر حين أسلم **أبو ذر** ﷺ وإصراره على إعلان إسلامه بمكة بينهم وهو غريب من بني غفار، ولم يكن يجب عليه حينئذ أن يفعل ذلك أو مطلوبا منه ذلك، فقاموا إليه وضربوه فكادوا أن يقتلوه حتى خلّصه منهم العباس ﷺ، ثم عاد إليهم مرة أخرى فضربوه حتى خلّصه مرة أخرى العباس ﷺ.

وانظروا إلى قصة إسلام **الطفيل بن عمرو الدوسي** ﷺ وكان سيّدا مُطَاعا شريفا في دوْس، وكان قد قدم مكة نهاية السنة السابعة من البعثة (٦١٧ م)، فاجتمع به أشرافُ قريش وحذَّروه من رسول الله ونَهَوْهُ أن يجتمع به أو يسمع كلامه، فما زالوا به حتى حشي أُذنيه كرسفا فَرقاً من أن يبلغه شيء منه.

---

٩ كتاب السيرة النبوية لابن كثير- -الجزء ٢- ص١٨٢-١٨٤

يقول **الطفيل** ﷺ: فوالله مَا زالُوا بى حَتَّى أَجْمعتُ أَلا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أُكَلِّمَهُ، حَتَّى حَشَوْتُ أُذُنِيَّ حِينَ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ كُرْسُفًا فَرَقًا من أَن يبلغني شئ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ.

قَالَ فَغَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ.

قَالَ: فَقُمْتُ مِنْهُ قَرِيبًا، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ.

قَالَ: فَسَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا، قَالَ :فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاثُكْلَ أُمِّي! وَاللَّهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيَّ الْحَسَنُ مِنَ الْقَبِيحِ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنَّ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتُهُ، وَإِن كَانَ قَبِيحاً تركتُه.

قالَ: فَمَكَثْتُ حَتَّى انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَيته فَاتَّبَعْتُهُ حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، للذى قَالُوا.

قَالَ: فوالله مَا بَرِحُوا بِي يُخَوِّفُونَنِي أَمْرَكَ حَتَّى سَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِكُرْسُفٍ لِئَلَّا أَسْمَعَ قَوْلَكَ، ثُمَّ أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي قَوْلَكَ، فَسَمِعْتُ قَوْلًا حَسَنًا، فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمْرَكَ.

قَالَ: فَعَرَضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيَّ الْقُرْآنَ، فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلَا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ.

قَالَ: فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقِّ.

فَلَمَّا نَزَلْتُ أَتَانِي أَبِي، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَقُلْتُ: إِلَيْكَ عَنِّي يَا أَبَتِ، فَلَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي.

قَالَ: وَلِمَ يَا بُنَيَّ؟ قَالَ :قُلْتُ أَسْلَمْتُ وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ: إِي بُنَيَّ فدينُكَ دِينى.

فَقُلْتُ: فَاذْهَبْ فَاغْتَسِلْ وَطَهِّرْ ثِيَابَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي حَتَّى أُعَلِّمَكَ مِمَّا عَلِمْتُ.

قَالَ: فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ وطهر ثِيَابه، ثُمَّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ.

قَالَ: ثُمَّ أَتَتْنِي صَاحِبَتِي،

فَقُلْتُ: إِلَيْكِ عَنِّي، فَلَسْتُ مِنْكِ وَلَسْتَ مِنِّي.

قَالَتْ: وَلِمَ؟ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي.

قَالَ: قُلْتُ: فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ الْإِسْلَامُ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَت: فديني دينك.

قَال: فَقلت فاذهبي إِلَى حمى ذِي الشَّرَى فَتَطَهَّرِي مِنْهُ.[١٠]

فانظر كيف بدأ بالدعوة قبل أن يستريح من وعثاء السفر، وانظر إلى مفاصلته مع أبيه وزوجته من أول لحظة يلقاهم فيها.

ثم قام بالدعوة في قومه حتى أسلم منهم ثمانون بيتا، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ بثمانين بيتا مسلما من دوْس بعد الخندق بعد أن أسلم بمكة في السنة السابعة من البعثة، فكم سمع من القرآن ولم يمكث مع رسول الله ﷺ إلا القليل؟! وكم وعى عن رسول الله ﷺ وقد أسلم ثم رجع إلى قومه داعيا لهم ثم أتى بهم بعد الخندق، وأما نحن فنسمع ونسمع ونقرأ و نقرأ ولا نفعل معشار معشار ما فعلوا.

وقبل هؤلاء جميعا أسلم **أبو بكر** رضي الله عنه، ولم يكد ينزل من القرآن إلا أوائل بعض سور قصار من القرآن، ولم يكد ينطق بالشهادتين حتى ذهب يدعو إلى الإسلام فأتى بستةٍ من خير صحابة رسول الله قد أسلموا على يديه.

---

١٠ كتاب السيرة النبوية لابن كثير- -الجزء ٢- ص-٧٢-٧٤

كل ذلك بمجرد أن ينطق أحدهم بالشهادتين، فينطلق كالسهم داعيا إلى الله، معلنا في حدّةٍ المفاصلة مع الكفر والبراءة منه، والولاء لله ورسوله من دون الناس جميعا، ونحن في خواطرنا أن هذا من نور الإيمان الذي قذفه الله في قلوبهم، وهذا حق، **ولكن** :

كما أن نورا في القلب مع جهل في العقل لا يستقيمان، وعلما في العقل مع ظلمة في القلب لا ينفعان، فقد غاب عنا أنه مع هذا النور الذي ملأ قلوبهم أنهم قد علموا علما تاما وأدركوا إدراكا كاملا معنى :"أشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّدا رسول الله"

نعم، قد كانوا يعلمون من "لا إله إلا الله" ما نحتاج نحن إلى مجلدات لشرح معناها، ومحاضرات ممتدة لإدراك حقيقتها_إن استطعنا إدراكها_، لنظن بما قرأناه وما سمعناه عنها أننا من العلماء، ثم قد ينطلق بعدها أحدُنا داعيا بها إلى الله، و لكن كل ذلك كان يحصله من كان يُسلم منهم بمجرد أن ينطق بالشهادتين!!.

فماذا كانوا يدركون من كلمة أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله بمجرد النطق بها؟

هذا هو السؤال المهم الذي يجب علينا أن نبحث فيه لنعرف سر تحولِهم المذهل والحاد من أقاصي الكفر إلى أقصى الإيمان...

هذا هو السؤال الذي إن أحسنّا الإجابة عنه وبيانه للناس لكان فيه خلاص الأمة وعز الإسلام والمسلمين..

هذا هو السؤال الذي تضمن الإجابة عنه التمكين في الأرض بوعد الله على الشرط الذي وضعه الله عز وجل وهو "أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئا".

فهل أحسنّا الإجابة عنه ؟ وهل أحسنّا تبيانه للناس ؟ وهل أحسنا الدعوة إليه وأوضحنا معناها لهم ؟؟!

هذا ما أبتغيه من هذا الكتاب في شرح التوحيد، وإن كنت في جُلّه ناقلا عن العلماء السابقين والمتأخرين لا أدعي علما ولا تأليفا، ولكن بطريقة أسأل الله أن تكون أسهل شرحا وأعمق توضيحا لمقصود كلمة التوحيد، وأسأل الله أن يوفقني فيه وأن يغفر لي أي زلة أو خطأ، فالكمال محال على غير الله، وأسأله سبحانه أن يتقبله مني، وأن يبلغه لأمة محمد ﷺ لعلها ترجع إلى ما كان عليه نبيُها وصحابته الكرام.

" أشهد أن لا إله إلا اللّه "

"أشهد"

معنى الكلمة لغويا..

شهِدَ: (فعل). شهِدَ يَشهَد ، شُهودًا ، فهو شاهِد ، والمفعول مَشْهود.

شَهِدَ المجلسَ :حضرَه. ومنه ما جاء في التنزيل العزيز:﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(البقرة: ٨٥)

شَهِدَ الحادثَ: عاينَهُ.
شهِد الجمعةَ : حضرها أو أدركها.

ومنها شاهدُ المحكمة الذي يشهد أمامها في واقعة يُسأل عنها، فلا بد له أن يشهد بالحق، ولا بد للشاهد أن يكون حاضرا للواقعة التي يَشهد عليها وقد عاينها بنفسه، واعيا تماما لها ويعلم تماما ما حدث فيها، ومطمئن تماما لما يقوله عنها، غير متشكك فيما رآه وسمعه منها، ومسئول تماما عنها وعن صدقه فيها، وليس مجبرا عليه، و إلا فلا تقبل شهادته بأي حال....

ومعناها في كلمة التوحيد أني أشهد بالحق في قولي غير متشكك فيه، ومطمئن فيه قلبي، وأني على علم بما أقول، ومسئول عن تبعاته وما يستحق عليه.. ..

ولذلك فكلمة "أشهد" في أصلها اللغوي ليست كلمة باللسان لا تعني إلا مجرد القبول والموافقة، وإنما تعني أنك مسئول عنها بعد قولها، محاسب على تبعاتها، مُآخذ على ما لم تقم فيه بحقها بعد أن شهدت على ذلك.

وهذا هو عين ما فهمه المشركون الأولون، فلم يكن رفضهم لشهادة التوحيد استكبارا وجحودا عن النطق بها فقط، ولكنهم عرفوا معناها وما يجب أن يلتزم به من يشهد بها، ولذلك قالوا لرسول الله ﷺ أما هذه فلا، أي اطلب منا ما شئت أن نقول إلا هذه الكلمة.

ومنها يتضح قبح المنافقين وكفرهم، فهم قالوها قول الشاهد الكذاب، ويتضح أيضا – واللهُ أعلم– لِمَ جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وذلك لأن المشرك أبى أن يقول ما لا يعتقده أو يرفضه، وهذا مما يجب خلقا ومروءة، وأما المنافق فهو مع كفره بها قَبِل أن ينطق بما لا يعتقده خداعا وغشا للمسلمين بلا داع لذلك إلا المكر بهم، فالإسلام لا يفرض على أحد الإسلام بالإكراه، ولا يقبله ولا يضطهد من أبى الإسلام بشرط المسالمة...

لا إله :

لماذا النفي أولا ؟

وما الفرق إن قلنا "الله إلهنا ولا إله معه.

ولماذا قدم الله الكفر بالطاغوت على الإيمان به في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿....فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ **البقرة: ٢٥٦.**

فلمَ تقديم الكفر بغير الله وتقديم النفي أن "لا إله" قبل إثبات الإيمان بالله عز وجل ؟

أولا: إن نفي أي وجود لإله غير الله عز وجل هو شرط الإيمان الأول لتعلم أنه لا ينفعك إيمان بالله إن لم تتبرأ من كل ما يُعبد من دون الله، وأنه لا ينفعك إيمان بالله حتى تعلن كفرك بكل ما سوى الله، وبكل دين غير دين الله عز وجل–دين الإسلام–، وبكل شرع غير شرع الله عز وجل، ولا ينفعك إيمان بالله وأنت ترى أن الآخرين على دينٍ صحيح أو لا يصح أن نصفهم بالكفر ...

ثانيا: لأن الإله لا يكون إلها لو كان معه غيره أو مثله أو شريك له، فهذا يعد نقصا فيه وانتقاصا من ألوهيته وقدرته التامة على الإحاطة بكل شيء، وأنه لا يحتاج لشريك في ملكة، ولو كان كذلك لم يعد إلها، فوجب نفي ألوهية غيره أولاً ليصح إيمانك واعتقادك بألوهية الله عز وجل.

وفي أيامنا هذه قد جهل كثيرٌ من المسلمين أنه لا يصح له إيمان بالله حتى يكفر بما عاداه، وحتى يكفر بكل دين غير دين الإسلام، بل سمعت من يقول إن كل صاحب دين يظن أنه على الحق فلا ينبغي أن نخوض في ما يعتقد الآخرون بتكفير وغيره !!!، وقد حكم الله في كتابه الكريم في آيات محكمات بكفر أناس بعينهم مثل اليهود والنصارى فلا بد أن نعتقد كفرهم كما حكم الله، ولا علاقة لذلك بحسن المعاملة التي فرضها الله لكل من سالمنا ولم يتآمر أو يُعن علينا.

ثالثا: لأن كثيرا من الناس قد جعلوا مع الله إلها آخر وشريكا يعبدوه أو يقدسوه وهم معترفون بربوبيته وألوهيته وعلوه سبحانه وتعالى عليهم، وهؤلاء هم النصارى باقون حتى الآن يقولون إن الله ثالث ثلاثة.

لما ظهر النبي ﷺ بدعوته بين الناس.. حاول كفار قريش أن ينفروا الناس عنه..فقالوا: ساحر.. كاهن.. مجنون..

لكنهم وجدوا أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون فاجتمع رأيهم على أن يرسلوا إليه حُصَينٌ بن المنذر الخزاعي، وكان من كبارهم. فلما دخل عليه حُصَينٌ قال: ما هذا الَّذي يبلُغُنا عنك أنَّك تشتمُ آلهَتَنا وتذكُرُهم.....فلما انتهى قال ﷺ يا حُصينُ :كم إلهًا تعبدُ؟ قال: سبعةٌ في الأرضِ، وإلهٌ في السَّماءِ.

قال: فإذا أصابك ضرٌّ من تدعو؟ قال: الَّذي في السَّماءِ.

قال: فإذا هلك المالُ من تدعو؟ قال: الَّذي في السَّماءِ.

قال: فيستجيبُ لك وحدَه وتشرِكُهم معه!!.[١١]

فهذا كان حال كثير من المشركين، فلم يكونوا منكرين لربوبية الله سبحانه وتعالى ولا حتى ألوهيته، ولكن كانوا بالأصل منكرين لوحدانيته سبحانه وتعالى ولذلك قالوا ما ذكره الله في كتابه العزيز: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾(ص:٥)

"الإله"

الإله لا يكون إلها حتى يكون منزها عن كل نقص، ومتصفا بكل كمال، ومتفردا في كل صفاته، وقادرا على كل شيء ولا يقدر عليه شيء، وقاهرا على كل شيء ولا يقهره شيء، وخالقا وموجدا لكل شيء ولم يُوجده شيء، وهو الغني المستغني عن كل شيء

١١ (رواه بن حزيمة في التوحيد صفحة ١/٢٧٨ وأشار ألى صحته- ورواه الترمذي مختصرا حديث رقم ٣٤٨٣ وقال حديث حسن غريب)

وأي شيء فلا يحتاج لشيء. فإن كان كذلك استحال أن يكون معه مثله من إله أو أعلى منه وإلا لم يكن إلها، وإن كان هناك إله آخر أقل منه لم يكن هذا الآخر إلها أصلا.

والإله هو المعبود المطاع الذي تُؤلهه القلوب، فتتجه له، وتقصده، وتخضع له، وتذل له، وتعظمه، وتدعوه ، وتتعلق به خشية، وإنابة، ومحبة، وخوفاً، وتوكلاً عليه، ورجاء فيه، وإخلاصاً له تبارك وتعالى.

وهو الإله المستحق بالولاية التامة فلا يوالوا إلا له، ولا يعادوا إلا فيه، وهو الذي يطاع فلا يعصي هيبة له وإجلالًا، ولا يصلح ذلك كله لغيره. فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه للإله ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

والإله لا يُخاف سواه، ولا يُرجى سواه، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُرغب إلا إليه، ولا يُرهب إلا منه، ولا يُتوجه بالدعاء إلا له، ولا يُحلف إلا باسمه، ولا يُنذر إلا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يُطاع إلا أمره، ولا يُتحسب إلا به، ولا يُلتجأ إلا إليه، ولا يُذبح إلا له وباسمه، ويجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لا يُعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة.

وجميع أنواع العبادة لا تعني الصلوات فقط، بل تشمل الصلوات وكل أمرٍ أمَر به الإله ونهيٍ نهَى عنه الإله، فالالتزام به عبادة، وتشمل أيضا كل العبادات القلبية التي تحمل في لُبها معنى استسلامك وخضوعك ويقينك بالإله وبربوبيته ووحدانيته وأسمائه وصفاته.

هذا هو حق الإله، وكلمة لا إله إلا الله سرها، وروحها كل ما سبق من نفي لغير الله من إله، وإثبات بأن الله هو الإله المستحق لكل ما سبق وحده سبحانه وتعالى.

"إلا الله"

الله: هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا ند ولا ولد، وهو الخالق العظيم، وهو الرحمن الرحيم، وهو القادر المقتدر، وهو العليم الحكيم، وهو الرزاق الكريم، وهو الحي القيوم، وهو العفو العظيم، وهو الملك القدوس السلام المؤمن، وهو المهيمن العزيز الجبار، وهو المتكبر الذي بيده وحده النفع والضر وكل شيء بيده، وكل شيء من بعد إذنه سبحانه وتعالى.

عن عبدالله بن عمر: **«أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قرَأ هذه الآياتِ يومًا على المِنبَرِ: {وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ والْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ والسَّمَواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ}**(الزمر: ٦٧). **ورسولُ اللهِ يقولُ هكذا بإصبَعِه يُحرِّكُها يُمجِّدُ الرَّبُّ جلَّ وعلا نفسَه: (أنا الجبّارُ أنا المُتكبِّرُ أنا الملِكُ أنا العزيزُ أنا الكريمُ) فرجَف برسولِ اللهِ ﷺ المِنبَرُ حتّى قُلْنا: لَيَخِرَّنَّ به»**[١٢]

واسم الجلالة **"الله"** هو علمٌ على الرب تبارك وتعالى، وهو أعظم أسماء الله التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها، ولأنه أخص الأسماء، إذ لا يُطلقه أحدٌ على غيره لا حقيقة ولا مجازاً، وسائر الأسماء قد يسمى بها غيره كالقادر، والعليم، والرحيم وغيره، وإن كان إطلاق الاسم عليه على وجه آخر يباين إطلاقه على الله عز وجل، وأما اسم الجلالة { الله } فخاص خصوصاً لا يُتصور فيه مشاركةً لا بالحقيقة ولا بالمجاز، وقد قبض الله تعالى عنه الألسن فلم يُسَمَ به سواه عز وجل، قال تعالى: **{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}** (مريم: ٦٥).

---

١٢ .(ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٣٢٧ • ورواه الإمام أحمد (٥٤١٤)

والله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، والعلم بها مما يحتويه العلم بكلمة "لا إله إلا الله" وهو من تصديق قول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ....﴿١٩﴾﴾(محمد-من الآية: ١٩)

وأسماء الله وصفاته هي التي أثبتها اللهُ لنفسه، أو أثبتها له رسولُه بمعانيها وأحكامها الواردة بالكتاب والسنة على الوجه اللائق به -سبحانه وتعالى- وبالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، ومن غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل ولا تشبيه. قال الله نعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

(الأعراف:١٨٠)

فالمسلم يصف اللهَ بما وصف به نفسَه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا يحرف ولا يزيد على ذلك شيئا أبدا، مهما اعتقد في صحة وحلاوة وصفِه، فإن صفات الله توقيفية نؤمن بها كما جاءت بلا زيادة أو نقصان.

فمن صفاته أنه هو السميع البصير، فيجب الإيمان بها كما آمن بها صحابة رسول الله ﷺ بلا تشبيه أو تعطيل أو تكييف.

والتشبيه: هو اعتقاد مماثلة أي شيء من صفات الله تعالى لصفات المخلوقات.

وأما التعطيل: فهو نفي صفات الله تعالى أو أسمائه وإنكار قيام صفات الله تعالى.

والتكييف: هو اعتقاد أن صفات الله تعالى على كيفية أي شيء مما تتخيله أو تدركه العقول.

فمن كان على سنة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام فهو يثبت الصفة وما أثبته الله أيضا لنفسه من عين ويد وقدم بلا تشبيه أو تكييف أو تعطيل، ولم يَرد عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام غير ذلك، فإن كان قد وردَ فعلى من يقول بهذا أن يأتي بالدليل، فليظهره إن استطاع.

ومختصر كل هذا ما نفاه الله عن مشابهته لشيء، ثم ما أثبته لنفسه في قوله تعالى:

﴿....لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

(الشورى-من الآية: ١١)

فيجب على المسلم أن يؤمن بكل أسماء الله وصفاته كما جاءت في الكتاب والسنة، وأن يؤمن بها كما آمن بها صحابة رسول الله ﷺ، ولا يتعمق في معانيها تعمقا يحاول به الوصول إلى كنه حقيقتها، فليس إلى ذلك سبيل أو قدرة عليه، وهم لم يفعلوا ذلك، ولم يطلبوه، ولم يسألوا عنه، وليس عن غير طريقهم طريق للنجاة، فإن صفات الله تعالى من ذاته، ولن يحيط بذات الله ولا بمنتهى صفاته أحد من خلقه، وقد ورد في الأثر **{ تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا }،** ويقول ابن أبي زيد القيرواني المالكي في "الرسالة" : لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون. يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته. وقال أبو جعفر الطحاوي: لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام....

وهكذا في كل صفات الله سبحانه وتعالى، فإنه يجب العلم بها كما جاء به الكتاب وجاءت به السنة، ثم يؤمن العبد بها إيمانا يجد تصديقه في حياته. ذلك "هو المقصود" مما علمنا إياه رب العزة من كل أسمائه وصفاته جميعها.

فليس المقصود أو المطلوب أبدا أن نتكلف في تأويلها أو أن ندرك حقيقتها أو أن نتخيل صورته سبحانه وتعالى، فكل ذلك مُحال وغير معقول، وكل ما جال ببالك فالله غير ذلك، والله لن يتعبدنا بما لا تطيقه عقولنا وحواسنا أو مدركات أفهامنا، ولذلك فلن يتكلف أحدٌ تأويلها تنزيها أو إثباتا إلا اقترب من التعطيل وإن لم يقع فيه، أو اقترب من التجسيم وإن لم يقع فيه، إنما **المقصود هو:** أن يتعبد المؤمن بصفات الله عز وجل جميعها التي أنزلها في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وينشغل بتحقيقها ومراقبتها في نفسه وسره وعلانيته ليحقق بها كلمة التوحيد قولا وقلبا وعلما وعملا، **والمقصود هو:** أن يتفاعل المؤمن مع كل صفة من صفات الله تعالى ويستحضرها في أفعاله وكلامه وحركاته وسكناته لا أن يقع الخلاف والشقاق بين المسلمين بسببها، وتكون سببا للفرقة وضياع الولاء فيما بينهم من أجل تأويلها. فليس هذا هو المراد من العلم بها، وإنما المراد أن نهتدي بها ونتلمس تصديقها في علاقتنا بالله سبحانه وتعالى، فإن فَعَل العبد ذلك واستقام عليه أصاب ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين ومن اقتدى بهم إلى يوم الدين.

ذلك هو ما وجدته في كل مسلم ومسلمة ذو فطرة سوية، وهو ما شاهدته في آبائنا وأمهاتنا وأجدادنا، فقد كانوا "يتعبدون" بتلك الصفات ولا يخطر ببالهم حقيقة المعنى أو كيفيته أو حتى السؤال عنه، وكانوا يستشعرونها بقلوبهم وفطرتهم لا بعقولهم، وستجد ذلك أيضا في إيمان كل مؤمن لم تتأثر فطرته بمجادلات لا يعلم تأويلها حقيقةً إلا الله. وما نقص فينا تعبدنا بتلك الصفات ومراقبتها في أفعالنا إلا بعدما انشغل العلماء بهذا الجدل عن تثبيت أثر تلك الصفات في قلوب المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولذلك كله ولكل ما سبق...

فإن **"لا اله إلا الله"** هي الكلمة التي قامت بها السموات والأرض، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهى حق الله على جميع العباد، وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحدٌ الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وكل ذلك بشرط أن ترسخ في قلب المسلم بحقيقتها، فيعرف حق الإلهية التي يثبتها قلبُه لله، ولا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، ويشهد بها لسانه وتصدّقها جوارحه، وينفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، ويواطئ قلبُه لسانَه في هذا النفي والإثبات، وتنقاد جوارحُه لمن شهد له بالوحدانية، ذليلة طائعة لربها، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت"...

هذه هي حقيقة الشهادتين اللتين يكررهما المسلم على الأقل تسع مرات يوميا في صلواته ليُسأل أول ما يُسأل عنها في قبره، ثم يُسأل عنها يوم القيامة.

فحقيق بمن أحب نفسه وأحب سعادتها ونجاتها وكان عاقلا فطنا أن يتيقظ دائما لهذه المسألة علما وقلبا وعملا وحالا، لتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار كله عليها، والسؤال عنها يوم القيامة.

الإخلاص و اليقين

أَخْلَصَ الشيءَ أي أَصْفَاه ونقَّاه من شَوْبه.

وأخلص في النصيحة أي صفاها من الغش.

ولا يكون الشيء مُصفّى حتى يخلص من كل شائبة ولو كان شيئا يسيرا. ولو نظرنا إلى اللبن مثلا لو حاولنا أن نضع عليه أقل من نقطة حبر، فما يحدث له؟! وهل يمكن أن نصفه ساعتها بأنه لبنا خالصا؟ وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(النحل: ٦٦)

أي لبنا لا شائبة فيه ولا يخالطه شيء، قد استخلصه الله من بين الفرث والدم ليكون سائغا نقيا لمن يشربه.

وأَخْلصَ لله دِينَهُ أي ترك الرِّياءَ فيه، وجعل نيته لله وحده، ولا يشرك معه أحدا في قصده ولو كان شيئا يسيرا، وإلا لم يكن قصده نقيا، وبالتالي لم يكن صافيا في نيته، وبالتالي لم يكن خالصا. وكما أن نقطة واحدة من الحبر تفسد إناءً كاملا من اللبن، فكذلك القليل من الرياء يفسد العمل، والله لا يقبل إلا الطيب النقي الصافي، ولا يقبل أن يعمل عبده العمل له ولغيره، فهو غني أن يقبل أو أن يكون له شريك، ولذلك يترك عمل العبد كله وشريكه الذي أشركه معه ليأخذ منه أجره !!.

فعن أبي هريرة – ﷺ –قال: قال رسول الله ﷺ:**«قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالى : أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»** [١٣] .

فالله غني كريم عزيز، إن قصدته هو وحده بعملك تقبله ونماه لك، وأعطاك عليه ما لا يُعد ولا يُحصى، وإن أشركت معه غيره ترك العمل كله لك ولمن أشركته معه، فهو غني عن ذلك وعزيز لا يقبله.

ذَكَر أهل التفسير أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ الْمِيزَانَ فَأَرَاهُ كُلَّ كِفَّةٍ قدر مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَغُشِيَ عليه، فلما أفاق قال:**«يَا إِلَهِي مَنِ الَّذِي يَقْدِرُ أن يملأ كفته حسنات؟ قال: "يَا دَاوُدُ إِنِّي إِذَا رَضِيتُ عن عَبْدِي مَلَأْتُهَا بِتَمْرَةٍ" »** [١٤] .

والله سبحانه وتعالى لا يرضى عبدا أو عملا إلا بالإخلاص، وكل عمل أشرك فيه العبد مع الله أحدا رده الله عليه.

ولذلك كله فإن الشرط الأول في كلمة التوحيد هو الإخلاص فيها، لأن من يقولها وهو يريد بها أمرا آخر غير الإسلام لله عز وجل دخل في زمرة المنافقين وهم أشر من الكافرين.

ويُعَدُّ الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدراً وشأناً، بل إن أعمال القلوب عموماً آكد وأهم من أعمال الجوارح، ويكفي أن العمل القلبي هو الفرق بين الإيمان والنفاق.

---

١٣ (رواه مسلم- كتاب الزهد والرقائق - باب من أشرك في عمله غير الله- حديث رقم ٢٩٨٥) .

١٤ (تفسير البغوي - إحياء التراث- تفسير سورة الأنبياء- (٢١) : الآيات ٤٤ إلى ٤٩، واللفظ له- زاد المسير في علم التفسير-(ابن الجوزي) -سورة الأعراف(٧) : الآيات ٨ إلى ٩)

عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قِيلَ يا رَسولَ اللَّهِ مَن أسْعَدُ النّاسِ بشَفاعَتِكَ يَومَ القِيامَةِ؟ قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ :**«لقَدْ ظَنَنْتُ يا أبا هُرَيْرَةَ أنْ لا يَسْألُني عن هذا الحَديثِ أحَدٌ أوَّلُ مِنْكَ لِما رَأَيْتُ مِن حِرْصِكَ على الحَديثِ؛ أسْعَدُ النّاسِ بشَفاعَتي يَومَ القِيامَةِ، مَن قالَ لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، خالِصًا مِن قَلْبِهِ، أوْ نَفْسِهِ»**[١٥]

ويتبع الإخلاصَ في كلمة التوحيد، الإخلاصُ في كل أركانها لله رب العالمين وحده، ثم الإخلاص في العمل بها وفي كل ما يُتعبد به الله عز وجل من أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

والإخلاص في العبادة كلها هو حقيقة الدين، وهو مضمون دعوة الرسل.

يقول الله تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ (البينة: ٥)

فالإخلاص في كلمة التوحيد والعبادة لله هو المدار الذي يدور عليه الدين كله، بل هو الطريق الوحيدة للنجاة من النار، وهو وعد الله ألا يعذب من لم يشرك به شيئا في عبادته.

فعن معاذ بن جبل قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي :

يا مُعاذُ، أتَدْرِي ما حَقُّ اللَّهِ على العِبادِ؟

قالَ : اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ : أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئًا،

---

١٥ (أخرجه البخاريُّ في باب الحرص على الحديث- حديث رقم ٩٩)

أَتَدْرِي ما حَقُّهُمْ عليه؟

قالَ :اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أنْ لا يُعَذِّبَهُمْ »[١٦]

ولذلك فمن فقه المؤمن أن يكون حرصه على تحصيل الإخلاص في عباداته كلها أشد من حرصه على الإكثار من الأعمال، فإن كثرتها مع شيء من الرياء قد لا تنفع العبد شيئا، ولرُبّ تمرة أُنفقت من قلب مؤمن مخلص لله كانت سببا لصاحبها في دخول الجنة، وهي خير من ألف ألف مثقال من ذهب أُنفقت على الفقراء والمساكين وفي الجهاد لم يكن فيها صاحبها مخلصا لوجه الله.

والإخلاص هو الذي تدور عليه كافة الأعمال الصالحة ولا يُقبل عمل إلا به، وهو الأمر الذي لا يطلع عليه ولا يعلم به أحد، لا الجن والإنس ولا الملائكة المقربون إلا الله عز وجل، وهذا يدل على عظم حقه في التوحيد وفي كافة الأعمال، ولذلك يطلق أيضا على كلمة التوحيد "**كلمة الإخلاص**"، بل إن أقل الأعمال الصالحة تعظم عند الله بالإخلاص، وأعظم الأعمال الصالحة تَصغُر عند الله بقليل من الرياء، إلا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) **فلا ينفع فيها رياء ولا شك،** وسيدخل صاحبها في عداد المنافقين الذين لم يقبل الله منهم أعمالهم وإيمانهم، وفي الحديث السابق عن أبي هريرة قوله ﷺ "**خالصا بها قلبه**" وفي حديث آخر "**مستيقنا بها قلبه**"[١٧]

وإخلاص العبادة لله يستلزم الإخلاص في كل ما يدخل في مسماه عبادة يُتقرب بها إلى الله، بلا أي استثناء أو مشاركة، ولا يُقبل في ذلك أي تأويل أو مداهنة أو ممايعة.

---

١٦ أخرجه البخاري في" كتاب التوحيد" "باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى" حديث (٧٣٧٣)ـ وأخرجه مسلم، حديث رقم(٣٠)،

١٧ (صحيح بن حبان- كتاب السير-باب في الخلافة والإمارة-ذكر ما يستحب للإمام إذا عزم على إمضاء أمر من الأمور-حديث رقم٤٥٤٣)

فالدعاء عبادة، فإن صُرف لغير الله كان شركا أكبر سواء كان ذلك المدعو حيا أو ميتا، وسواء كان نبيا أو صالحا من الصالحين. والذبح والنحر عبادة، فإن صُرفا لغير الله كانا شركا أكبر، وعلى هذا سائر العبادات.

والإخلاص ليس سهلا أو مأمونا كما يظن كثير من الناس، بل كان صحابة رسول الله ﷺ أخوف ما كانوا يخافون على أنفسهم من النفاق، حتى سأل عمر بن الخطاب وهو مَن هو بفضله وبشرى رسول الله ﷺ له بالجنة حذيفةَ من اليمان حافظ سر رسول الله ﷺ هل أنا من المنافقين ؟؟!!

وعن جبير بن نفير قال: "سمعت أبا الدرداء وهو في آخر صلاته، وقد فرغ من التشهد يتعوذ بالله من النفاق، فكرر التعوذ منه، فقلت: مالك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟! فقال: دعنا عنك، دعنا عنك، فوالله، إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه.[١٨]

ولصعوبة الإخلاص وخفائه وسهولة تسلل الرياء إلى قلب المؤمن وهو لا يشعر كان الخوف الشديد يملأ قلوب صحابة رسول الله ﷺ من النفاق، وقد قال أحد العلماء: من ظن بنفسه الإخلاص فهو مصاب فيه وهو لا يشعر. ولم يكن أحد أشد من صحابة رسول الله ﷺ طلبا للإخلاص وحرصا عليه ورعاية له، وكانوا مع ذلك أخوف الناس من النفاق.

واعلم أخي المسلم أن الشرك أخفى من دبيب النمل، ومَن منا يستطيع سماع دبيب النمل ليعرف متى دخوله وخروجه!؟ ولذلك لا قُدْرة للعبد على توقيه إلا أن يسأل الله أن يصرفه

١٨ سير أعلام النبلاء- ط الرسالة-الجزء ٦ – الطبقة الخامسة-صفوان بن عمرو السكسكي- ص ٣٨٢ - تاريخ دمش لابن عساكر- حرف العين-ج ٤٧--ص ١٨٢

عنه ويوفقه للإخلاص، وقد أوصى رسول الله ﷺ أفضل صحابته وأفضل الأمة بعده أبا بكر بأن يَحْذر منه، فمن منا بعده يأمنه ؟!.

عن معقل بن يسار المزني ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: **«يَا أَبَا بَكْرٍ، لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ «قَالَ: قُلِ:**

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَ أَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ"»[١٩]

وأما اليقين فقد ورد فيه آيات منها قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (التوبة: ٤٥)

فقد نفى الله الإيمان عن جماعة من المنافقين بسبب ريبهم وشكهم في حقيقة وحدانية الله تعالى، وفي ثواب أهل طاعته وعقابِه أهل معاصيه، وظلوا على ريبهم وشكهم وفي أمرهم مذبذبين.

كما أن عدم الشك هو شرط من شروط الإيمان لقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الحجرات: ١٥)

---

١٩ (صحيح الأدب المفرد- باب فضل الدعاء-حديث رقم ٧١٦)

ورُوي في ذلك أحاديث عديدة، منها قوله ﷺ فيما رواه جَابر أنه قال: **« اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُوقِنًا أَوْ مُخْلِصًا فَلَهُ الْجَنَّةُ »**[٢٠]

في الصحيح أيضاً أن الرسول ﷺ أرسل أبا هريرة بنعليه قائلاً له: **إِذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ."**

واليقين في قول "لا إله إلا الله" يستلزم أيضا اليقين في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى؛

فالله هو الرحمن الرحيم، ومن اليقين بها أن يمتلأ قلب العبد رجاءً في رحمة الله، ولا يقنط أبدا من رحمته مهما بلغت به الذنوب، ويوقن أن رحمة الله تعالى تمحو كل الخطايا سوى الشرك كما قال سبحانه في حديثه القدسي:

« يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[٢١]

وكما أن المسلم يؤمن برحمة الله فإنه يؤمن بأن الله شديد العقاب، واليقين بذلك يجعل المؤمن يعيش في خوف من الله وعذابه، وتصديق ذلك أن يدفعه إلى ترك المعاصي والبعد عن الحرام، وإلا كان مدعيا في زعمه.

فإذا آمن المسلم وأيقن بأن الله هو الرحمن الرحيم، وأنه شديد العقاب، فإنه يعيش بين الرجاء في رحمة الله، والخوف من عذاب الله، وهذا هو الحال الذي كان عليه رسول الله

---

٢٠ (رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه برقم١٥١ وَذكر السُّيُوطِيّ فِي الْجَامِع الْكَبِير جـ١ص٩٦ وَزَاد نسبته لِابْنِ خُزَيْمَة وَذكره عَلَاء الدّين فِي كنز الْعمَّال برقم ١٤٤ وَقَالَ حَدِيث صَحِيح).

٢١ (رواه الترمذي- باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده -حديث رقم ٣٥٤٠)

ﷺ وأصحابه الكرام. أما من قام يقول أنا أعبد الله حبا ورجاء فقط لا خوفا من عذابه، فيكفيه أنه ضيّع إيمانه بصفة من صفات الله تعالى، ولو كان على علم ويقين بهذه الصفة ومعرفةٍ بالله تعالى ما استطاع أن يُخرج أثر تلك الصفة من قلبه.

والله هو الحكيم الخبير وهو الرءوف الرحيم، ويقين المؤمن بتلك الصفات يجعله يرضى بقدر الله فيه فلا يسخط ولا يعترض على حكم الله فيه أو في عبادة. وبمقدار ذلك اليقين يكون مقدار الرضا من العبد على كل ما يحدث له من قدر الله، وعلى قدر ذلك الرضا يكون مقدار إيمان العبد واستسلامه لربه.

فالتسخط والاعتراض على قدر الله من خير أو شر هو تسخط على حكمته وربوبيته سبحانه وتعالى الذي وَسِع كل شيء رحمة وعلما.

وإيمان المؤمن ويقينه بأن الله قادر مقتدر، وأنه وحده سبحانه الذي بيده النفع والضر يجعله قويا لا يخشى مخلوقا مهما علا شأنه وقوي سلطانه. وتصديق ذلك اطمئنان القلب لله تعالى، وتعلقه به وحده سبحانه وتعالى. والمؤمن بيقينه بأن الله وحده هو من بيده النفع والضر لن يشتمل قلبه على رجاءِ أحدٍ إلا الله، ولن يخشى أحدا إلا الله، ويكون اعتماده كلياً على الله، ويفوض أمره كله إلى الله، ويضع حوائجه كلها صغيرها وكبيرها عند باب الله، ولا يلتفت قلبُه إلى الخلق مهما كان سلطانهم وظاهر النفع بيدهم.

والمؤمن بيقينه أن الله وحده هو الذي ينفع وهو الذي يضر لا يمكن أبدا أن يعلق تميمة أو خيطا وما شابه، أو أن يذهب إلى السحرة والكهان، ومن فعل ذلك فقد أشرك بالله. وإذا ضعف يقين العبد بأن الله وحده الذي يملك النفع والضر أصابته المخاوف من الخلق عند ظن الضر منهم، ووقع في التذلل لهم عند ظن النفع منهم، وكل ذلك ينافي توحيد الله عز وجل.

وإيمان المؤمن ويقينه بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ولا رازق سواه يجعله مطمئنا في الدنيا، ولا يذل نفسه لأحد من الخلق، أو ينافق أيَ أحدٍ ممن جعل الله أسباب الرزق تأتي من طريقهم.

وعلى قدر يقين المؤمن بأن الله هو القاهر فوق عباده وهو المتصرف الوحيد في خلقه وعباده، وأن جميع الأسباب في يديه وبيده قلوب العباد يحولها كيف يشاء يكون اطمئنان العبد فيما يواجهه في مواقف حياته، ويمتلئ قلبه سكينة واطمئنانا.

والله هو الرقيب السميع البصير، ويقين المؤمن بكل ذلك يجعله يراقب الله في كل حركاته وسكناته وفي سره وعلانيته، بل يصل إلى أن يشعر بمعية الله تعالى الدائمة معه في صدره، فإن داوم على ذلك فقد يصل إلى أن يعبد الله كأنه يراه فيصل بذلك إلى مرتبة الإحسان.

ومما ينبغي أن يكون مع اليقين بأسماء الله وصفاته هو العلم بها علما يوافق ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام. فكما قلنا فإن العلم بصفات الله هو من تصديق العلم بكلمة (لا إله إلا الله)...

واليقين والعلم بأسماء الله وصفاته متلازمان، فلا يكفي اليقين فقط أو العلم فقط، فإنك إن آمنت بها كما جاءت في الكتاب والسنة ولكن لم يقع اليقين بها في قلبك موقعا تجده في حياتك وأفعالك فإن ذلك يُعد ضعفا في توحيدك بالله عز وجل، وضعفا في إيمانك ويقينك بألوهيته سبحانه وتعالى. وإن أيقنت بصفة من صفاته ولكنك آمنت بها على نحوٍ لم يكن عليه النبي ﷺ وصحابته فقد ألحدت في صفات الله سبحانه وتعالى.

وهكذا في كل صفات الله سبحانه وتعالى فإنه يجب العلم بها كما جاء به الكتاب وجاءت به السنة، واليقين بها هو تصديقها في أفعال العبد وكلامه وحركاته وسكناته، وسره وعلانيته ليحقق بها كلمة التوحيد قولا وقلبا وعلما وعملا.

الكفر بما سوى الله.(لا إله) الا الله

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

هو الشرط الأعظم في الشهادتين، لأن اعتقادك في إلهٍ غير الله أو الاعتراف به أو عدم إنكار ألوهيةِ غيره ينفي عنك شهادتك بأن الله واحد لا شريك له، وبذلك ينفي عنك الإسلام والإيمان الذي يشترط مع الإيمان بالله اليقين بوحدانية الله عز وجل...

وكما ذكرنا من قبل أن تقديم نفي ألوهية ما دون الله عز وجل قبل إثبات الإيمان بالله عز وجل لكي يعلم كل مسلم أنه لا ينفعه إيمان بالله، ولا يصح له إسلام، حتى يكفر تماما بما دون الله عز وجل...

فلا يكفي المرء أن يقول أنا أعبد الله وحده ولا أعبد صنما، بل لا بد أن يعتقد ويقول إن الأصنام التي تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها ويعتقد ويقول: إن عبادتها ليست بحق، وإلّا كان مقرا بالكفر.

وهذا يتضمن أيضا من يتبعون هذه الآلهة المزعومة التي تُعبد من دون الله، فإن اعتقدت في عدم كفرهم فإنه لا ريب يعني صحة ما يعبدون. وليس من المنطق أن تكفر بما يعبدون وتنفي الكفر عمن هم قائمون على عبادته من دون الله..

و أيضا من رضي دين النصارى واليهود دينا يدينون لله به بعد بعثة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم فقد كفر؛ لأنه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام فقد كذّب قول الله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(آل عمران: ٨٥)

وفي زماننا هذا يحاول كثير من الماكرين إيهام العامة بأن اليهود والنصارى ليسوا بكفار، وإنما هم أهل كتاب مثلنا لما ورد بمناداتهم بذلك في كتاب الله، وهذا من الإضلال الذي يمارسونه على العوام بسبب شيوع الجهل بالعقيدة بين الناس، فقد قال الله تعالى في آيات محكمات:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

(المائدة: ٧٢،٧٣)

ويقول الله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة: ٣٠)

فمناداتهم بأهل الكتاب في كتاب الله إنما ذلك في جانب المعاملات تمييزا لهم عن المشركين، وقد جعل الله لهم أحكاما خاصة في التعامل معهم ليست لغيرهم، وليس ذلك في جانب إقرار العقيدة التي هم عليها أو إقرار عقيدة المسلم، ونحن نتعامل معهم وندعوهم كما علمنا القرآن فنناديهم بـ "يا أهل الكتاب" ولكن ونحن نعتقد كفرهم، وكفر ما هم عليه كما أرشدنا وبين لنا القرآن في آياته المحكمات.

أما هؤلاء الماكرين فهم يريدون أن يستبدلوا ما شرعه الله في جانب المعاملات مكان ما جعله الله في عقيدتنا نحوهم.

والعجيب أن النصارى يعتبروننا كفارا عندهم لأننا لا نتبعهم في اعتقادهم بألوهية المسيح، وقساوستهم يعتقدون ذلك ويلقنونه أتباعهم، واليهود كذلك يفعلون، ثم تجد من بين المسلمين نفاقا أو جهلا من يَنفُر من قول علماء المسلمين بكفرهم، وبكفر كل من لم يبتغ غير الإسلام دينا !!!.

ويجب أن نعلم أيضا أن الكفر بما دون الله يشمل أيضا "**الكفر بأن لغيره أن يشاركه أو ينازعه صفةً أو شيئا مما اختص الله بها نفسه سبحانه وتعالى**"، ومنها على سبيل المثال: **الحكم والتشريع** وأن له الأمر والحكم وحده سبحانه وتعالى....

يقول الله تعالى ﴿... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يوسف-من الآية: ٤٠)

فانظر كيف أثبت الله الحكم له سبحانه بصيغة التأكيد مع القصْر، ثم قرن الحكم بأن العبادة لا تكون إلا له سبحانه وتعالى وحده، ثم قال سبحانه بعدها (ذلك الدين القيم)...وكل ذلك يعني أنّ من العبادة التي أمرنا الله بها ولا تجوز لغيره أن نخضع لحكم الله وشرعه وشريعته وحده، ومن أبى ذلك فقد كفر وأشرك في كلمة التوحيد...

فمن اعتقد أن التشريع قد يصح من عند غير الله، فقد ضيع هذا الشرط العظيم في الشهادتين، وهو نفي ألوهية غيره، لأنه أعطى لغيره صفة من أخص صفات الله تعالى ...

وليس هناك عجب في ذلك، فكيف يكون إلهاً من لا يحكم في خلقه وكونه، ولا يُشرّع لهم، وليس له الأمر فيهم!!؟، **وكيف يرضى العبدُ لله سبحانه من الحكم في خلقه ما لا**

يرضاه العبد لنفسه في بيته !!!؟. وكيف يَدّعي أحدٌ الإيمان بالله ويزعم توحيده وهو ينزع عن الله صفة الحكم أو يعتقد مشاركة غيرِه فيه!!!؟.

وليس أدل وأوضح وأكثر بيانا على أن التشريع من عند غير الله كفر، وأن التشريع عبادةٌ لله كالصلاة والصيام هو ما رُوي عن عدي بن حاتم الطائي لما قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسلم فتلا عليه رسول الله ﷺ قوله تعالى﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴿٣١﴾﴾(التوبة: ٣١)، **فقال عدى: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ** (لأنه ظن العبادة هنا هي الصلاة والسجود وما شابه)، فَقَالَ ﷺ : **«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟ «قُلْتُ: بَلَى، قَالَ» :فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»**[٢٢]

وهذا الحديث أيضا من أوضح ما يكون بأن المقصود بعبادة الله ما هو أشمل من الصلوات وأداء النسك لله عز وجل، وأوضح ما يكون على كفر من أراد أن يقصر الإسلام على بعض النسك والصلوات ثم يذهب ينظم باقي حياة الناس على غير دين الله..

وفي مثل هذا أيضا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾(الشورى: ٢١)

فمن اتخذ أو اتبع شرعا غير الذي شرعه الله فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، ومن اتبع أحدا في ذلك **فقد اتخذه شريكا لله** شرع له من الدين ما لم يأذن به الله، وهذه من

---

٢٢ (المعجم الكبير للطبراني-باب العين-حديث رقم -٢١٨- الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن الواحدي-تفسير سورة التوبة الآية ٣١- صفحة رقم ٤٩٠- ٤٩١)

أوضح الآيات في شرك وكفر من أخذ شرعا من عند غير الله، وأن من يفعل ذلك فقد جعل لله شريكا.

فلا إيمان لمن اعتقد أن أحكام الناس وآرائهم خير من حكم الله ورسوله، أو تماثله وتشابهه، أو أجاز أن يحل محلها الأحكام الوضعية والأنظمة البشرية...

وكل هذه الأدلة تثبت كفر من رفض تطبيق شرع الله، أو رفض شيئا منه، أو كره تطبيقه، أو كرِه حكما منه ولو كان حكما واحدا، لأن الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، وليس في حكمه أو كلامه نقص، وليس هناك ما هو أحكم من كلامه وحكمه.

إن من يرفض حكما من أحكام الله ولو حكما واحدا ويريد أن يستبدله بحكم آخر، إنما يتهم الله بنقص حكمته، أو أن هناك ما هو أفضل منه، وفيه سب لله تعالى و هذا غاية الكفر والضلال البعيد ..

وصفة الحكم والتشريع لا تشمل سن القوانين فقط، بل تشمل ما هو أهم، وهي المرجعيات والأفكار التي تُسن على أساسها القوانين، ويُرجع إليها في إصدارها، وتكون دستورا تُبنى عليها شكل الدولة وقوانينها، ومنها كل هذه الأفكار من علمانية و ليبرالية و شيوعية و ديمقراطية و حتى الأفكار الرأسمالية و الاشتراكية، **وأي فكر يسمى بأي اسم يبتدعه الشيطان و أتباعه من الإنس إلى يوم القيامة**، لأنها جميعا تحدد شكل الحكم والتشريع وسن القوانين، وما دامت تحدد كل هذا فالكفر بها أولى من الكفر بالقوانين نفسها..

وعلى ذلك فإن شهادة أن "**لا إله إلا الله**" تقتضي أن تنفي أنّ لأحد غير الله الحق في التشريع، وتقتضي أن تعتقد أنه ليس هناك مرجعية أو فكر بأي حال غير الإسلام يمكن

أن نستمد منها تشريعاتنا وقوانينا، وأن تكون أساسا لنظام حياتنا، ومن يفعل ذلك فقد اتخذ رباً وإلها غير الله، كما جاء في حديث عدي بن حاتم الطائي، وهو واضح جلي لا شك فيه...

ويشمل هذا أيضا من يخلطون في التشريع بين مرجعية الإسلام وغيره من المرجعيات، (كمن يخلط بين الشورى والديموقراطية) فمن فعل ذلك فهو كمن أشرك مع الله أحدا في عبادته، وكل هذا يخرجه من الإخلاص في قوله "لا إله إلا الله"، ويدخله في دائرة الشرك بالله، وإن كان لا يصلي ولا يصوم ولا يحج إلا لله، أو كان مجاهدا وداعيا الى الله ...

وحريٌ أن يُذكر هنا ما يدعو إليه مكراً كثيرٌ من هؤلاء الذين يخلطون بين الإسلام وكفرهم في جعل دَوْر الدين مقتصرا على المبادئ العامة التي لا تختلف عليها الإنسانية جمعاء مثل رعاية الأخلاق الحميدة، والحث على الفضيلة، والمساواة والحرية، وما إلى ذلك، ثم يتركوا لأنفسهم تفسير هذه المبادئ وحدودها ومعاني تطبيقها حسب قناعاتهم وعقولهم وأهوائهم المنحرفة التي لا تلتزم بأي دين..

فالحرية مثلا عندهم تشمل حرية الإبداع التي تقتضي عندهم فتح بابها بلا قيد أو شرط، حتى سموا عهرهم وفسقهم بل ودعارتهم في أفلامهم فنا وإبداعا!!!

والحرية أيضا أن تُعطي المرأة الحرية لأن تلبس ما تشاء "دون إنكار"، ولكن من كفرهم لا يشمل هذا أن تتحجب المرأة أو تنتقب بلا إنكار بأي حجة من حجج نفوسهم المريضة، ومنها الحفاظ على الصورة العلمانية للدولة!!!.

والحث على الفضيلة ومنع الرزيلة لا علاقة لها عندهم بالسماح بأن يهيم الرجال على النساء على الشواطئ عرايا !!!

وهكذا فإنهم يجعلون مكانة الله عندهم "تعالى الله عما يفترون" مثل ملكة إنجلترا أو ملك السويد؛ لهم عند شعوبهم غاية الاحترام والتبجيل والاعتراف بتاريخهم وعلو مكانتهم، ولهم استثناءات خاصة تميزهم عن باقي الشعب، ولهم في المناسبات العامة خطابات يوجهونها لشعوبهم يحثونهم فيها على الفضيلة والتعاون والترابط والعمل الجاد وما إلى ذلك، ولكن ليس لهم في الحكم شيء أو تحكم في شيء، ولا يستطيعون أن يصدروا قانونا ولا يمنعوا قانونا أو يفسروا قانونا، فكل هذا يخضع لآخرين أو للشعوب كما يدعون، وهو ما يُطلق عليه مَلِكةً أو مَلِكا شرفيا. وإن الذين يريدون أن يقصروا الإسلام والقرآن على المبادئ العامة إنما يجعلون بهذا الله عز وجل وتعالى الله عما يفترون إلها شرفيا، وهذا غاية في الكفر والضلال عليهم لعنة الله.

وإنما يفعلون ذلك مكرا وحيلة يتفادون بها تطبيق شريعة الله دون إظهار مكنون صدورهم برفض تطبيق دين الله، وحاكميته على خلقه عن طريق تطبيق ما أنزله الله في كتابه بحدوده وقيمه وأخلاقه.

ومما انخدع فيه الناس أيضا "الديموقراطية"، بسبب خفاء كُفرها وخداع شعاراتها. فمن شعاراتها أن الشعب مصدر الحكم والسلطات، وأن نوابه بعد ذلك هم من يُقرّون التشريع، وعوام الناس يظنون أنها مجرد انتخابات وصناديق وهي في **حقيقتها غير ذلك**؛

— فالديموقراطية في حقيقتها تعني أن جميع الشعب بطوائفه وأقلياته بأديانه وأفكاره مهما كانت نسبتها في المجتمع لها الحق الكامل في المشاركة في وضع الدستور الحاكم لهذا المجتمع، وعلى الأغلبية –مهما كانت نسبتها– أن تتوافق مع الجميع في وضع الدستور إلى أن يتراضى به جميع الطوائف، وليس للأغلبية الحق مهما كان عددها أن تفرض دستورا ولو كان شرع الله.

— والديموقراطية قد تقبل ببعض الشريعة وأحكامها على سبيل الاختيار القابل للتغيير والتبديل والخروج منها إذا اختار الشعب ذلك، وليس أبدا الالتزام بها، لأنه هو مصدر السلطات، ونوابه هم مصدر التشريع. وليس مسموحا في الديموقراطية أن تكون هناك مرجعية فوق اختيار الشعب–ولا حتى القرآن– لتظل لهم الحرية أن يغيروا ما شاءوا وقتما شاءوا.

— والديموقراطية لا يُسمح فيها بأن تكون هناك مرجعية دينية يكون رأيها مُلزما للجميع إذا اختلفوا في شيء منها مهما كانت شكل هذه المرجعية وموقفها منهم جميعا، بل فقط على سبيل الاستشارة في أحسن الأحوال.

هذه هي القيم الأساسية للديموقراطية وحقيقتها (والأصح وسمها بالديموخراطية)؛ فهي تعني أن تبحث مع الجميع عن حل وسط يرضى به الجميع عند عمل الدستور، وهي تنزع الحكم من الله وتعطيه للشعب، وهي بذلك تنزع أخص معاني الألوهية وأعمق صفة من كلمة التوحيد وهي أن يكون الحكم لله وحده، وأن تكون شريعة الله هي الحاكمة للجميع بلا معارض أو معقب، وهي بذلك تخالف الله في صفة من أخص صفاته، وكل ذلك كفر، والحكم على الأشياء يكون تبعا لحقيقتها وليس تبعا لما يفهمه الناس عنها.

فهي ليست مجرد انتخابات وصناديق كما يظن كثير من عوام الناس فانخدعوا فيها وانتشرت بينهم، ثم زاد الأمر سوءا حتى آمن الناس بها كأنها شرع وحق يتبع بعد أن رضِيَ بها بعض الدعاة والإسلاميين الذين أصبحوا يدعون إلى الاحتكام إليها اعتمادا على أن الشعب المسلم إذا أتيح له الاختيار لن يختار إلا تحكيم الإسلام والإسلاميين، وأن استطلاع رأي الناس وسيلة من وسائل الشورى في الإسلام، وهذا باطل من ناحيتين:

الأولى أنه إذا ثبت كفر الديموقراطية فلا يجوز الاحتكام إليها بأي حال ولا بأي حجة ولا أي مبرر، فكل ذلك باطل ولا قيمة له، لقول الله سبحانه تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾(النساء: ٦٠)

وإن زعم أحدٌ منهم أنه يأخذ من الديموقراطية ما يوافق الإسلام ولا يعارض الدين ويريد الإصلاح بها فقد زعم أن شريعة الإسلام ناقصة، وتوهّم وأوهم الناس أن ليس في الإسلام نظام للحكم متين، وهؤلاء يكفيهم قول الله تعالى فيهم بعد الآية السابقة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ النساء: ٦٢

وقوله تعالى ﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾(المائدة- من الآية: ٣)

والثانية أن عملية الاختيار الحر المباشر في حد ذاتها مخادعة، وتعتمد على عوامل كثيرة غير محسوسة وغير محسوبة، وتتأثر بالخداع والإعلام إلى حد أنها قد تأتي بما لم يكن في حسبان الناس أو بما لا يريدونه أغلبيتُهم، وإن أتت بالاسلاميين مرة فقد تزيحهم وتأتي بمن ينقض كل ما عملوه لدين الله مرة أخرى. بل قد تأتي بمن هو عدو لله ورسوله ولدين الإسلام بعد أن خدع الناس ببعض الشعارات وانخدع الناس في ظاهره، حتى اذا استمكن من الحكم استخدم سلطته في التعليم والاعلام في خلخلة دين الناس وإفساد عقيدتهم ليتغير ولاؤهم وعوامل اختياراتهم، أو ينقلب على الديموقراطية نفسها التي أتت به فيستبد ويطغى ويُنحّي شرع الله كما حدث سابقا في تركيا الحديثة مرات عديدة على سبيل المثال.

وإنه من أوجب الواجبات حاليا على الدعاة إلى الله وعلماء المسلمين أن لا يَمَلّوا من تبيان هذا الأمر العظيم للناس؛ وهو أن الكفر بكل الأفكار التي تعارض شرع الله في أي ناحية شرط من شروط صحة شهادة التوحيد، مثلها مثل شرط الكفر بعبادة الأصنام وكل إله يُعبد غير الله ليصح توحيد العبد لله، فإن كثيرا من المسلمين انخدع في كثير من هذه الأفكار التي يُنظمَ بها وعلى أساسها حياة الناس، وأمست مرجعا للحكم، وبعضهم آمنوا بها واتبعوها وانخدعوا فيها وهم لا يعلمون أنهم قد ضيعوا ما يضيع بضياعه شهادة التوحيد.

ومما أختص به نفسه سبحانه وتعالى أيضا: **التوجه له بالدعاء و التوسل له** وحده، **و الذبح و النذر له** وحده.

لقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ (غافر: ١٤)

ولقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ (الكوثر)

والإخلاص لا يكون إخلاصا إلا إذا انفرد به الله سبحانه وتعالى، فلا يُشرَك معه أحدٌ بأي حال من الأحوال، ولو على سبيل الزلفى والوسيلة، ولذلك فإن الاقتصار على التوجه بالدعاء لله عز وجل هو شرط من شروط التوحيد، والنحر قد قرنه الله في الآية بالصلاة فهو عبادة لا تنبغي لغير الله أبدا...

فالدعاء هو رمز الخضوع والتذلل والضعف والحاجة ممن يدعو لمن يدعوه، وهو رمز القدرة لمن تدعوه، فإنه لا يُدعى إلا من يُظن به أنه قادر على تحقيق هذا الدعاء بنفسه، فإن لم يستطع بنفسه فإن التوجه بالدعاء لمن يملك ذلك أحق وأولى، وترك من لا يقدر عليه ولا منفعة منه أحرى لمن يعقل.

ولذلك فإن التوجه بالدعاء لغير الله شرك وكفر، ويجب الاعتقاد فيمن يفعل ذلك بأنه مشرك بالله تعالى، فإن هناك بعضا من الناس لا يرون بذلك بأسا وإن كانوا لا يفعلونه، وهذه مصيبة عظمى في دينهم وهم لا يشعرون، فإنه لا يكفي المسلم ترك الكفر، بل يلزمه الكفر به واعتقاد ذلك لتحقيق معنى (**لا إله**) التي تنفي أن يُعبد غير الله أو أنّ لغيره شيء من خصائص الألوهية، فوجب إعلان الكفر باتخاذ القبور والأولياء وجهة للدعاء أو النذر أو الذبح وما شابه ذلك.

وهذه القاعدة من الإشراك في أي صفة من صفات الله التي اختص بها نفسه، مثل النذر والتوسل والرزق والشفاء وعلم الغيب بالقول أو الفعل أو الرضا أو السكوت القلبي تنفي عن العبد صحة مقاله "**لا اله إلا الله**"

وهكذا فإن اعتقاد الكفر بما سوى الله سبحانه وتعالى، والكفر بأي شيء كان ماديا أو معنويا أو فكريا يشارك الله في أي صفة من صفاته التي اختصها لنفسه هو من لوازم التوحيد والإيمان، ولا يصح إسلام و إيمان لمن ضيع هذا الشرط العظيم،

هذا ما يجب وجوبا إيضاحه للناس لمن يريد أن يبين لهم حقيقة شهادة التوحيد، فكل ما عدا الإسلام دينا وشريعة باطل بلا تحديد، وكفر بلا تفرقه ..

الطاعة

الطاعة هي حق الإله العظيم والرب المنعم الذي خلق ورزق، وهي تعني الإيمان بأنه وحده سبحانه الذي تجب طاعته، ولا تُقدم طاعة غيره على طاعته، ولا تصح طاعة غيره إلا بما يرضيه، وليس لأحد حق طاعةٍ إلا بإذنه حتى أنبياء الله عز وجل. يقول الله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ (النساء: ٥٩)

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ (آل عمران: ١٣٢)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾ (النساء: ٦٤)

وإن الطاعة هي لازم العبودية الأكيد، فالعبد المُسترق لا ينبغي أن يَعصي سيده بأي حال، ولا يطيع سواه إلا بإذنه، وإن لم يفعل فقد خرجت عنه صفة العبودية لسيده، وأصبح عبدا لمن يطيعه، وكل من جعل طاعة غير الله مقدمة على طاعة الله فقد أصبح عبدا له...

إن توحيد الله عز وجل في الطاعة يتحقق بطاعة أوامره التي جاءت في كتابه العزيز، وطاعة من أمر الله بطاعتهم بصورة مطلقة وهو النبي ﷺ، ثم طاعة من أمر الله بطاعتهم في المعروف وفي غير معصية مثل الأبوين وأولياء الأمور الذين يحكمون بشرع الله.

ولا يطيع المسلم في ذات الله أحدا؛ لا نفسه ولا شيطانه ولا كافرا ولا ضالا ولا مبتدعا ولا مسرفا ولا غافلا ولا مدعيا للعلم أو الولاية ...فمن أطاع من هؤلاء –معتقدا جواز طاعته في معصية الله– فقد اتخذه إلها، وإذا اتخذه إلها كفر.

وإن الله أنكر على اليهود والنصارى كفرهم باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله بطاعتهم لهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، فجعلوا الأحبار والرهبان شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا.

يقول سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ (التوبة: ٣١)

وقد سوى الله بين عبوديتهم للأحبار والرهبان في إتباعهم لهم في التشريع بغير حق، وعبوديتهم للمسيح الذي جعلوه إلها، فجعل الأمرين بمثابة واحدة، وفي نهاية الآية يثبت الله أن من فعل ذلك فكأنما عبَد مع الله إلها آخر. وما أمَرَنا الله سبحانه إلا لنعبده وحده بلا ند أو شريك، سبحانه أن يكون له ند أو شريك.

لذلك فإن شهادة أن لا إله إلا الله تستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولمن أمر بطاعتهم في غير معصية وإلا كنت عابدا لغيره.

أما عن حالنا نحن المسلمين اليوم، فهناك من يدينون بالطاعة الكاملة لغير الله ويتعبدون بها أشبه ما يكون بطاعة النصارى لأحبارهم، وهم مبتدعة المتصوفة–لا أهل التصوف عامة– الذين يطيعون أوليائهم في كل ما يأمرون، وإن خالفت أوامرُهم ما جاء به الكتاب

وجاءت به السنة تحليلا أو تحريما، وهم وإن كانوا أقلية قليلة بالنسبة إلى غالبية المسلمين ولكنهم منتشرين في أنحاء البلاد الإسلامية، وهذا من الشرك بالله تعالى.

وإن كان هؤلاء لا يشكلون إلا نسبة قليلة من المسلمين، **فهل غير هؤلاء من يقع أيضا في شرك الطاعة ؟؟**

قد يظن القارئ أن غير هؤلاء من الناس لا يشوب توحيدهم في ركن الطاعة شرك، ولكن الحال غير كذلك. ولكي تعرف أخي القارئ مدى انتشار هذا الأمر واستفحاله بين المسلمين أذكرك بجمل مشهورة معروفه بينهم (أنا عبدٌ مأمور) أو (دي أوامر)، فهل يظهر لك الآن أن كثيرا من الناس قد يدينون بالطاعة لغير الله، وقد تكون طاعة كاملة عليه تنفيذها بلا تردد وبلا تفكير في حلال أو حرام، وهل هي معصية أم لا، وفي الظلم البين، بل وإن كانت الأوامر هي سجن الأبرياء وتعذيبهم والتنكيل بهم. وتخيل أنك تجد مِن هؤلاء من يقول للمسجونين لا تدعوا علينا فنحن ننفذ الأوامر ليقينه أن هؤلاء مظلومون، ويخاف من استجابة دعوتهم فيه إن هم دعوا عليه، ومع ذلك هو مستمر في الطاعة وملتزم بتنفيذها حتى وإن دعوا عليه !!!

و"العبد المأمور" هذا تجده في كل مكان أو مصلحة وإن لم يقلها صراحة، مثل من يطيع صاحب عمل في ظلم الأجراء والعمال ويطيعه في أكل أرزاقهم وحقوقهم.

وليس هناك طاعة مطلقة إلا لله ورسوله، وأما طاعة غيره وإن كان أميرا أمّره رسول الله ﷺ فهي مشروطة بالطاعة في المعروف، وفي غير معصية الله، وانظر إلى هذا الحديث العظيم وقول رسول الله ﷺ للصحابة رضي الله عنهم الذين هموا بطاعة أميرٍ أمّره رسول الله ﷺ عليهم في إحدى السرايا، حين أمَرهم هذا الأمير بدخول نارٍ أوقدها، فقال

صلى الله عليه وسلم: (**لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا**)، ولم يعذرهم رسول الله ﷺ بأنه أمرهم بطاعة أميره، فإن طاعة الأمير مرتبطة بما يرضي الله، وإلا أصبحت طاعة تعبُّد لإله من دون الله.

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قالَ: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، وأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصارِ، وأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وقالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قالُوا: بَلى، قالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَما جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وأَوْقَدْتُمْ نارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيها فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نارًا، فَلَمّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ، فَقامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ، قالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّما تَبِعْنا النَّبِيَّ ﷺ فِرارًا مِنَ النّارِ أَفَنَدْخُلُها؟ فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ خَمَدَتِ النّارُ، وسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ: «لَوْ دَخَلُوها ما خَرَجُوا مِنها أَبَدًا، إِنَّما الطّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»[٢٣]

وتأمل قولهم (**إنما تبعنا النبي ﷺ فِرارا من النار، أَفَنَدخُلُهَا؟!**)، وقد قالوا ذلك قبل أن يسمعوا من رسول الله ﷺ قولته (**انما الطاعة في المعروف**)، ولو سمعوها من قبل لاحتجوا بها، فلم يفعلوا حتى رجعوا إلى رسول الله ﷺ فقال لهم ما قال، وتوعدهم النار إن هم كانوا قد فعلوا، وفي هذا دليل عظيم على أن إعمال العقل قبل تنفيذ الأمر واجب لتتبين به هل هو مما يرضي الله ورسوله أم لا، وهل هو من المعروف أم لا–وليس فقط معصية أم لا– فالطاعة ينبغي أن تكون على بصيرة، ولو كان الأمر العام هو أن طاعة الأمير واجبة، ولكنها ليست بعذر إن أطعته في غير معروف. وهذا مما ينطبق أيضا على الجماعات الداعية إلى الله مهما تأولت في أفعالها ومناهجها لتأخذ الطاعة من أتباعها.

٢٣ (رواه البخاري-بابُ السَّمْعِ والطّاعَةِ لِلْإمامِ ما لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً-حديث رقم ٧١٤٥)

ولذلك نقول للذين هم (عبدٌ مأمور) والذين هم (بالأوامر ملتزمون) احذروا أن تكونوا ممن يعبد من دون الله بشرا أو جماعة أو مؤسسة أو وطنا فرضت عليكم الطاعة التامة بلا شرط وبلا اعتراض في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أو ظلم الناس والاعتداء عليهم، ثم تجدون أنفسكم يوم القيامة من المشركين وأنتم لا تشعرون.

وكل هؤلاء إن التزموا بطاعة غير الله دون قيد أو شرط وبلا استثناء في معصية فقد هتكوا معنى العبودية وتوحيد الله عز وجل، وإن أتوا ببعض النسك والصلوات من الحج والصيام وقيام الليل، وهم أشر من التي كانت تقوم الليل وتصوم النهار وتؤذي جيرانها فقال عنها رسول الله ﷺ لا خير فيها هي في النار، لأن هذه المرأة لم تنتفع بصلاتها وصيامها لتزكي نفسها وتتقي الله في الناس فعصت الله فيهم، والمعصية مهما بلغت أهون شرا من انتهاك ركن من أركان العقيدة، وأهون من وقوع الإنسان في الكفر بإلزام الإنسان نفسه بطاعة غير الله في خير وشر وفي معصية الله ولو حتى في بعضها، كما ورد في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

(محمد: ٢٥ – ٢٨)

لقد كان مظهرا من مظاهر ردة هؤلاء عن إيمانهم هو التزامهم بالطاعة لمن كره ما نزّل الله في بعض الأمر، فاتبعوا بذلك ما أسخط الله فأحبط الله أعمالهم، فكيف بمن دان بالطاعة كلها لغير الله؟!.

ولا شك إن إهمال الدعاة والعلماء تبيان أن الطاعة التامة الغير مشروطة هي لله وحده ورسوله ﷺ، وأن من تمام التوحيد أنه لا يطاع مطلقا إلا الله ورسوله ﷺ، وأن طاعة غيره طاعة مطلقة شرك بالله تعالى، لا شك أن إهمال ذلك ستكون له من أثارٍ وخيمة أقلها أن يُطاع الظالمون في تعذيب الدعاة والعلماء على يد مسلمين أيضا يظنون أن لهم عذرا فيما يفعلون بتنفيذ أوامر أوجب عليهم بعضُ البشر طاعتها، وهم لا يعلمون مقدار عاقبة ذلك في دينهم وعقيدتهم.

الرجاء

معنى الرجاء هو التطلع والأمل في نيل نفع أو قرب ممن يرجوه، وبمعنى آخر هو تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل.

وفي حق الله هو التطلع والأمل في عفو الله ورحمته وكريم ثوابه وسعة مغفرته، والاستبشار بجوده وفضله تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه وعطائه في الدنيا والآخرة.

والرجاء لا يكون رجاءً إلا مع العمل، وبغير عمل يسمي **تمنيا**، كمثل الذي يملك أرضا فهو يحرثها ويزرعها ويسقيها ويرعاها يرجو بذلك عظيم الثمر منها، وأما التمني فكالذي يملك أرضا فيحلم ويطمع أن تأتي له بالثمر ولم يضع فيها بذرة واحدة، وهذا التمني هو ما يسمى أيضا غرورا.

ولهذا يقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ (فاطر: ٢٩)

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ (الكهف: ١١٠)

فقَرنَ الله سبحانه وتعالى في الآيتين بين الرجاء والعمل، وجعل العمل مصدقا للرجاء فيه...

وعكس الرجاء هو القنوط واليأس، وهذا لا يقع في قلب مؤمن أبدا، فمن أعظم الخطايا التي قد يقع فيها المسلم هو القنوط من رحمة الله، لأن الله من أسمائه الغفور وهو الرحمن الرحيم وهو العفو الكريم، ولو بلغت الذنوب بعبده المسلم عنان السماء غفرها الله له بتوبة صادقه ولا يبالي، وقد يبدلها له كلها حسنات كرما منه وفضلا، ولا يُسأل عن ذلك، ولا معقب لحكمه سبحانه، ولا ييأس من رحمته إلا الكافرون.

وفي الحديث القدسي، قال اللهُ تعالى:

«يا بنَ آدمَ إنَّك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك على ما كان منك، ولا أُبالي، يا بنَ آ دمَ لو بلغتْ ذنوبُك عنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لك، يا بنَ آدمَ لو أتيتَني بقِرابِ الأرضِ خطايا، ثمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بي شيئًا لأتيتُك بقِرابِها مغفرةً»[٢٤]

والرجاء هو من الأعمال القلبية الخفية والخطيرة التي قد يفقدها المؤمن وهو لا يشعر، لأن الرجاء لا يتعلق بثواب الله ومغفرته في الدار الآخرة فقط، بل يتعلق بالله فيما يخص الحياة الدنيا أيضا، ويتجلى ذلك في المنافع التي جعل الله أسبابها في أيدي عباده، فتتعلق القلوب بهم لنيلها ولو شيئا يسيرا، وهذا مما يقدح في كمال شهادة أن لا إله إلا الله المتضمنة بأن الله هو القادر القدير الذي بيده كل شيء، ولا أحد بيده شيء إلا من بعد إذنه، وقد جفت الصحف بما هو كائن وبما كتبه الله على عباده.

إن الرجاء في الله في نوال رحمته وجنته، والرجاء في الله عند طلب منفعةٍ من منافع الحياة الدنيا هو أيضا من لوازم الإيمان بالله وشروط التوحيد، فإن كل من يطلب حاجة في الدنيا من أحد ينبغي أن ينزلها بالله تعالى وأن يعتقد تمام الاعتقاد أن العباد مجرد أسباب

٢٤ (رواه الترمذي-أبواب الدعوات- باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده حديث- رقم ٣٥٤٠)

لا حول لهم ولا قوة، لأنه ما من أحد غير الله يقدر على إيصال نفع أو دفع ضر إلا بإذنه. وفي حديث عبدالله بن عباس عن رسول الله ﷺ:

«.....واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ »[٢٥]

وما دام الأمر كذلك فكيف ترجو النفع ممن ليس بيده شيء البتة، وفوق ذلك قلبه وعقله بين يدي الله إن شاء حولهما لك، وإن شاء حولهما عليك .

والرجاء وهو **عمل قلبي بحت** لا يعني أن لا نأخذ بأسباب الله في نيل المنافع الدنيوية، ولكن يجب وجوبا أن يعلم المرء أن من يطلب عنده قضاء حاجة أن ليس بيده شيء البتة، وإنما الأمر بيد الله وحده إن شاء أمضاها على يديه، وإن لم يشأ لم تُقضَ مهما علا شأن هذا الإنسان وسلطانه، بل كما جاء في الحديث أن لو اجتمع العالَمُون على أن ينالوك بنفع لم يكتبه الله لك لن تنله بأي حال، والمؤمن يؤمن بهذا، لأن الله قد اختص نفسه بأنه هو الذي ينفع وهو الذي يضر، وليس لأحد في ذلك شيء إلا من بعد مشيئته، وما دام هذا **فإن صدق الإيمان لا يعني إلا أن يتعلق رجاء القلب بالله وحده**، فإنْ تعلقَ بغيره أو تعلقَ بغيره مع الله لم يكن صادق الإيمان أو كامل التوحيد.

وأي إنسان يتعلق رجاءُه وقلبُه في إنسان ويعتقد أن النفع بيده من دون الله فإن هذا مما يقدح توحيده لله تعالى. يقول الله تعالى :

---

٢٥ (رواه الترمذي - أبواب صفة القيامة والرقائق والورع -حديث رقم ٢٥١٦ (حسن صحيح)

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ (يونس: ١٠٧)

ويقول تعالى:

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾(الأنعام: ١٧)

ولذلك كله لا ينبغي للمؤمن أن يعلق رجاءه على غير الله سبحانه وتعالى ولو شيئا يسيرا، لأن المؤمن يعلم علم اليقين أن كل شيء بيد الله، وأن الله بيده النفع وبيده الضر وأنه سبحانه ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ (البروج: ١٦)

والرجاء من أشد الأعمال القلبية خفاءً مثل الإخلاص ولا يظهر غالبا على جوارح الانسان، لأنه لا يتصل بالعمل إلا في خفاء تام. فقد يقوم اثنان بطلب شيء من أمور الدنيا آخذين بأسباب ذلك الشيء أو تلك المنفعة التي شرعها الله، ولا فرق بينهما في ظاهر فعلهما، ولكن أحدهما قد فرغ قلبه من السبب وممن بيده أداء هذه المنفعة من البشر، وجعل رجاءه في الله وحده متيقنا أنه هو وحده سبحانه بيده تحقيقها وإبرامها، وأما الآخر فقد تعلق قلبه بالسبب أو بالشخص الذي جعل الله المنفعة في يده ظنا منه أن إبرامها بيده، ناسيا أن لا أحد بيده شيء إلا أن يقضيها الله، فهو القاضي بما يشاء، وهو الذي ينفع ولا نافع سواه. ولكن الفارق بين الاثنين بعيد جدا في عبوديتهما لله رب العالمين وتوحيدهما لله عز وجل.

إن تعلق الرجاء بغير الله تعالى أصل من أصول الشر والفساد في الدين والدنيا، فتجد الراجي يتزلف إلى من يرجوه بكل وسيلة وتذلل، ويُضيّع من كرامته وعزته أمامه من فرط رجائه في نيل النفع منه، وقد ينافقه ما دامت مصلحته بيده، وقد يمدحه بما ليس فيه، وقد يسكت عن باطله خوفا من ضياع الفائدة التي يرجوه منها، ولا يزال الناس يفعلون ذلك معه حتى يشعر في نفسه بالعظمة والفضل عليهم، وقد يسئ معاملتهم ويتعالى عليهم إن لم يكن ذا دين متين، وكل هذا هو أصل من أصول الفساد في المؤسسات الحكومية وغيرها، والذي يترتب عليه تفشي أخلاق سيئة بين الناس مثل المداهنة والذلة والنفاق وتضييع الكرامة، والكبر والتعالي واحتقار الآخرين.

ومن أجل هذا فنحن دائما نقول إن أصل كل فساد موجود في الأرض هو من تضييع معنى من معاني التوحيد والعقيدة، ولن ينصلح هذا الفساد إلا بإصلاح ما أصاب الناس في توحيدهم وعقيدتهم.

ونقول أيضا حاربوا الفساد والفاسدين والظلم والظالمين في المجتمعات، حاربوهم... ، ولكن ابحثوا في أسباب نموهم بالبحث في الخلل الذي أصاب عقيدة الناس حتى لا يتكاثر هؤلاء ونفشل في استئصالهم. وإن الطبيب الماهر إذا أراد أن يعالج داءً فإنه لا يكتفي بعلاج أعراضه فقط، ولكنه يبحث أيضا عن أصله ليقضي عليه، ومن لا يفعل ذلك فإما أن يفشل في العلاج أو سرعان ما يعود المرض بعد شفاء قصير برغم الجهد الكبير والتضحيات التي لا تنقطع، أو يتحول الداء إلى مرض مزمن، **وهل من غير ذلك تشكو الأمة؟!!!.**

وللأسف، فإن كثيرا من الدعاة والمصلحين إلى الله ما زالوا يجهلون هذه الحقيقة التي هي أوضح من الشمس في رابعة النهار!!! وما زالت الأمة بعيدة عن الشفاء من أمراضها بسبب غفلة الطبيب عن علاجها القاطع.

ومما يعين على إخلاص الرجاء في الله سبحانه وتعالى أنه ما من عبد يرجو وجه الله مخلصا في رجائه إلا أعزه الله، وأمّنه مما يخاف، وأعطاه ما يطلب من أمر الدنيا أو أفضل منه، وما من عبد يرجو وجه الناس إلا سقط في أعينهم، ولم يأخذ من الدنيا إلا ما قد كتبه الله له منها.

يروى أن ابنُ هُبَيْرَةَ أحضر الحسنَ والشَّعْبِيَّ، فقال لهما: أصلحكما الله، إن أمير المؤمنين يزيد بن عبدالملك يكتب إليَّ كتبًا، أعرف في تنفيذها الهَلكة، فأخاف إن أطعته غضب الله، وإن عصيته لم آمَنْ سطوتَه، فما تريان لي؟ فقال الحسن للشعبي: يا أبا عمرو، أجِب الأمير، فقال الشعبي فرفق له في القول، ولانَ .

وكان ابن هُبَيْرَةَ يريد أن يسمع قول الحسن، فقال: قل ما عندك يا أبا سعيد، فقال الحسن: أوَ ليس قد قال الشعبي؟ فقال ابن هُبَيْرَةَ: ما تقول أنت؟ فقال: أقول – واللهِ – يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ مِنَ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى فَظٌّ غَلِيظٌ لَا يَعْصِي اللهَ مَا أَمَرَهُ فَيُخْرِجَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضِيقِ قَبْرِكَ يَا عُمَرُ بْنَ هُبَيْرَةَ إِنْ تَتَّقِ اللهَ يَعْصِمْكَ مِنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَا يَعْصِمُكَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .....فبكى عمر بن هبيرة ، وأجزل جائزة الحسن، وقصَّر في جائزة الشعبي.

ثم خرج الشعبي إلى المسجد، فلما اجتمع أهل مجلسه، قال: أيها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله–عز وجل– على خلقه، فليفعل؛ إن الأمير ابن هبيرة أرسل إليَّ وإلى الحسن، فوالذي نفسي بيده! ما علم الحسن شيئًا جهلته، ولكن راعيتُ ابنَ هُبَيْرَةَ، وأردت رضاه، وقصَّرت في قولي له، فأقصاني الله وأبعدني، وكان الحسن مع الله–عز وجل–فقرَّبه وأدناه، وسخَّر ابن هُبَيْرَة فآثره وحَبَاه.[٢٦]

٢٦ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء-أبونعيم الأصبهاني-الطبقة الأولى للتابعين – الحسن البصري-ج٢-ص١٤٩

وهناك أمثلة أخرى كثيرة في حياتنا الدنيا و تصاريفها البسيطة قد لا يتخيل المرء أنها تتناقض مع توحيد الله في جانب الرجاء، فكما ذكرنا فالرجاء لابد أن يكون كله لله، وإذا صُرف منه شيء ولو كان يسيرا نقض ذلك في كمال الإيمان وكمال التوحيد. ولكن لشدة خفائه يكاد لا أحد يسلم منه إلا من عصمه الله، ومن ذلك :

أن ترجو الاحترام من الناس وتنتظره بقلبك لأنك داعية أو خطيب أو أيا منْ تكون، فعندئذ قد رجوت غير الله، وفي رجاء النفع من مخلوق ولو كان شيئا معنويا خلل منك في التوحيد.

ترجو أستاذك أو شيخك أو زميلك مراعاتك أو تقديمك أو تفضيلك على غيرك، وبذلك قد صرفت جزءاً من رجائك لغير الله، ولعلهم إن لم يفعلوا نقص حبك لهم وتقديرك، فقد تكون بذلك كمن يغضب لأجل الدنيا حينما لم ينلها.

ترجو مديرك في العمل أو صاحب العمل أن يدنيك لما في الدنو منه المنزلة وقرب المنفعة، واعتقادك في زيادة الرزق بالدنو منه.

ترجو من تعرف أن يتوسط لك في وظيفتك، فإذا لم يفعل لربما دب إليك اليأس، وتنسى أن الحوائج تُقضى بالله، وأن البشر لا يملكون نفع أحدٍ ولا ضره، مهما ظهر للناس أنهم يستطيعون نفعا أو ضرا، إنما النفع والضر بيد الله وحده.

وخلاصة القول أن الرجاء في رحمة الله ركن من أركان التوحيد، ولا يقنط من رحمة الله إلا الكافرون، والرجاء كما هو مطلوب في أمر الآخرة كذلك هو مطلوب في أمور الدنيا ومنافعها، وليست الدنيا هي الماديات فقط بل أيضا ما يحبه المرء من الرفعة والتقدير والتفضيل وكل ذلك من الدنيا، فلنراجع أنفسنا في جانب الرجاء فهو مثل الإخلاص

شديد الخفاء، يُصاب المرء فيه دون أن يشعر، والتوحيد في الرجاء هو أن ترجو ذلك كله من الله، فعند الله كل ذلك، وعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وتأمل قول الله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ١٣٤﴾

(النساء: ١٣٤)

ولو علم العبد أن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله لأنه الملك الحق الجواد الكريم، وهو أجود من سُئل وأكرم من أعطى، وأيقنَ العبدُ أن ما من شيء من أمر الدنيا أو الآخرة إلا بيده سبحانه ما صرف شيئا من رجائه لغيره، وما انتظر النفع بقلبه والفضل إلا منه، وما تعلق قلبه إلا بالله العلي القدير.

الخوف و الخشية

أما الخوف من الله تعالى فهو الرهبة منه، ومن الوقوف بين يديه ومن عذابه، وأنه يعلم سر العبد وجهره وما توسوس به نفسه، وينتج عن هذا تقوى الله تعالى.

يصف الله تعالى المؤمنين فيقول سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (المؤمنون: ٥٧)

ويقول تعالى: ﴿ .... وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (البقرة- من الآية: ٤٠)

وحينما يتقدم المفعول على الفعل فهو صيغة قصر، أي ارهبوني وحدي، وفي آية ثالثة:

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿ .... فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (آل عمران-من الآية: ١٧٥)

والخوف يستخدم ليصف حالة الضعف الشديد أمام قوة قاهرة مثل خوف الإنسان من الكهرباء، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى واصفا الملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾(النحل: ٥٠) ليبين هنا ويظهر لنا مدى ضعفهم أمام الله عز وجل، ونحن نعرف مدى قوتهم التي أعطاهم الله إياهم؛ ففيهم من أخذ مدينة بطرف جناحه فجعل عاليها سافلها...

وأما الخشية فهي جزء من الخوف، ولكنها أخص منه ليصف وجود حالة أخرى معها من مهابة واستعظام المخوف منه، وانكسار القلب له.

والخوف منه ما هو **غريزي في الإنسان**، قد أوجده الله فيه لحكمة، وبه يحافظ الإنسان على حياته من مخاطر الحياة مثل السبع والحية ويأخذ حذره منهم، ومن الاغتيال فيأخذ الحيطة له، ومن كل قوة قاهرة له مثل الكهرباء والفيضانات ومثل ذلك، وهذا الخوف لا إثم فيه إذا وجدت أسبابه، ولا ذم فيه إلا ما كان مبالغا فيه لضعف سببه، مثل الخوف الشديد والذعر من الظلام. ومثال على هذا الخوف الغريزي ما جاء في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ (هود: ٧٠)

أما الخوف الذي يتصل بالعقيدة فهو **الخوف الاعتقادي**، أو خوف السر أو الخوف بالغيب، وهو أخطر أنواع الخوف، وهو القادح في التوحيد، وضابطه: **أن يخاف العبدُ من مخلوق خوفاً مقترناً بالتعظيم والخضوع والمحبة على سبيل العبادة،** وهو خوفٌ يتعلّق بالقلب، فمن خاف أحداً غير الله عز وجل على سبيل العبادة، فقد أشرك مع الله غيرَه، واتخذَ معه ندّاً، فلا حظّ له من الإسلام؛ لأن الله أمر بإخلاص العبادة له، والخوف المقترن بالتعظيم والخضوع هو إحدى تلك العبادات، فلا يجوز تعلقه بغير الله أصلا، وهذا لا ينبغي إلا لله وحده، والإخلاص فيه شرط لازم، ومثيله في أيامنا هذه عند بعض الناس هو خوفهم من الأولياء من أن يتنزل عليهم غضبهم، وتراه إذا ذهبت تنكر عليهم ما يفعلون من بدع ودعاء الأولياء إذا بهم ينتفضون خوفا على أنفسهم، ثم يحذرونك نتيجة غضب أوليائهم عليك، كما قال الله تعالى:

﴿.....وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾

(الزمر- من الآية: ٣٦)

ومثله أيضا خوف بعض الناس من الجن ومن أسيادهم كما يدّعون، فتراهم يستأذنونهم ويترجونهم إذا حلوا بمكان دون أن يجعلوا رجاءهم ودعاءهم وطلب الحفظ من الله سبحانه وتعالى، فهذا كله من الشرك في كلمة التوحيد.

فالله وحده هو الذي يُخشى منه، ويُخاف منه لمقامه وجلاله وحقه على عباده، وكل ما هو موجود خلقٌ من خلقهِ، وعبدٌ من عبيده، لا ينبغي أن يُخاف منهم بالغيب شيئا سواء حيا أو ميتا فضلا عن أن يكون وثنا أو جنّا..

وقد حكا الله عن قوم هود عليه السلام في كتابه العزيز أنهم قالوا له:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ (هود: ٥٤)

وهذا الخوف الاعتقادي من أعظم مقامات الدين وأجلها؛ فمن صرفه لغير الله فقد أشرك بالله.

وهناك **الخوف المرتبط بدرجة الإيمان** لأنه يَضعُف إذا قوي الإيمان، ويقوى إذا ضعُف الإيمان، وهو الخوف من وقوع مكروه وأذى قد ينزل بالإنسان فيدفعه لترك معروف أو فعل منكر، وهذا الخوف يصيب الإنسان على قدر إيمانه وعلى قدر شدة التوحيد في قلبه ومعرفته بالله عز وجل، وهو مما يأثم عليه إلا ما كان منه إكراها وإجبارا بيقين لا يقدر على دفعه بأي حال.

والخوف من الله تصديقه البعد عن الحرام، ولذلك قيل: لا يعد خائفا من لم يكن للذنوب تاركا. فليست العبرة أن تخاف، بل أن يحملك الخوف على طاعة الله وقول الحق، وأمر

بمعروف ونهي عن منكر، لا تخاف في الله لومة لائم، وهذا هو الخوف المحمود، فإن صرفه المؤمن لغير الله كان فيه من ضعف التوحيد والإيمان بقدره ...

ومن ذلك ما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لا يَحْقِرْ نّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ»،قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَالَ " : يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ :خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى»**[٢٧]

ويقول الله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(المائدة: ٤٤)

فهذا أمرُ الله للأحبار أن يبينوا للناس الحق ولا يكتمونه مخافة الناس، ويدخل في هذا المعنى كل من كتم حقا أو قولةَ حقٍ دفاعا عن مظلوم وجبت عليه فلم يظهرها مخافة الناس، وقد يشمل هذا أيضا مَنْ ترك السنّة الواجبة من مخافة انتقادات الناس له، وخاصة إذا كان الإنسان عالما أو داعيةً يُقتدى به.

٢٧ (.رواه بن ماجه في السنن- كتاب الفتن 20) باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-حديث رقم ٤٠٠٨ - الفتح الرباني للإمام الشوكاني صفحة رقم ٥٤٤٨)

ومن الصفات التي يجب أن يتأسى المؤمن بها ألا يخاف في الله كلامَ الناس، كما جاء في كتاب الله عز وجل عن المؤمنين:

﴿...يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ...٥٤﴾(المائدة-من الآية: ٥٤)

فالمؤمن لا يخاف وقوع الأذى في قول الحق لأنه طريق الأنبياء والصالحين، ولأنه يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فإذا كان الحال كذلك فليصبه بطاعة الله خيرٌ له من أن يصبه بسبب شيء آخر...

ومن كيد عدو الله إبليس أن يُخوف المؤمنين من جنده وأوليائه من الإنس لئلا يأمروا بمعروف ولا ينهوا عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، فكلما قوي إيمان العبد زال منه خوفُ أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانُه قوي خوفُه منهم.

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ١٧٥﴾
(آل عمران: ١٧٥)

وأولياء الشيطان من الإنس هم الكفار والطغاة والظلمة وأهل الفجور. وهذا الخوف الذي يرسله الشيطان إلى قلب العبد لكي يخوفه من أوليائه إن استجاب العبد له فترك الحقَ الواجب كان فيه من ولاية الشيطان بحسب المعصية التي ارتكبها، وكان خوفه مذموما يأثم به إلا ما كان إكراها فوق المستطاع. لأن الدنيا دار ابتلاء، ومن الفتن التي

يَمتحن بها اللهُ سبحانه وتعالى المؤمنَ هو تعرضه لبعض الأذى في دينه و قول الحق، وقد قال الله تعالى:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ (العنكبوت:)٢

وهناك نوع من الخوف من تلبيس إبليس، وهو الخوف الشديد الذي يتحكم في الإنسان من أمر حقٍ قد جاء به القرآن وجاءت به السنة، ولكنه ينسى أن الله هو الحافظ وأنه لا يكون شيء من ذلك إلا من بعد إذنه، فيكون خوفه واعتقاده في هذه الأمور كأنها فاعلة بنفسها لا مرد لها ولا مانع. وهذا الخوف مثل الخوف من **السحر والعين والعدوى** وقد قال الله تعالى في السحر والسحرة:

﴿....وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ..﴾ (البقرة- من الآية:١٠٢)

وحتى إبليس نفسه ملك الجن الأعظم–لعنه الله– يقول يوم القيامة أنه ما كان له على الناس سيطرة تجبرهم على فعل أمر جبرا عليهم، وإنما هي وسوسة في الصدور وتنسية الإنسان تكاليفه، كما جاء في القرآن الكريم عن قول الشيطان يوم القيامة:

﴿....وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ..۝٢٢﴾ (إبراهيم- من الآية: ٢٢)

ويقول تعالى:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ...﴾

الكهف- من الآية: ٦٣

ويقول الله تعالى في قصة موسى عن السحرة:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ (طه: ٦٦)

وفي آية أخرى يقول الله تعالى:

﴿قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾
(الأعراف: ١١٦)

فهؤلاء هم أعظم سحره في التاريخ، وما كانوا يقدرون على شيء إلا التأثير على أعين الناس بتخييل الشيء إليهم، وليس بأن يتحكموا ويسيطروا على الناس ليفعلوا ما لا إرادة لهم فيه. وشبيهٌ بذلك ما يفعلونه بأن يسلطوا الجن على إنسان فيزين له مساوئ امرأته ليكرهها، وقد يكون هذا مما يخيله للزوج أو مما يعظم عنده من مساوئها، وكل هذا يَرده من جعل القرآن والسنة وحسن الخلق أساسا في حياته، فيُفسد على الشيطان كيده ووسوسته إلى جانب ما يحصن به نفسه من الأذكار.

فغاية ما يفعله الشيطان هو التزيين أو الوسوسة أو التنسية، وليس بالسيطرة على الإنسان، ومهما فعل الشيطان فإن كيده ضعيف لا يحتاج من المؤمن إلا أن يستعيذ بالله منه ويستعين به عليه، فهو خالقه وأمره بيديه، وكل هذا يعلمنا القرآن إياه في كثير من الآيات:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾
(فصلت: ٣٦)

وقوله تعالى﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (المؤمنون: ٩٧،٩٨)

وقوله تعالى:﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ (الناس: ١ -٦)

هذا هو مراد الله تعالى، وهو أن يظل المؤمن لاجئا إلى الله مستعيذا به مستحميا بحماه، أما أن يصبح الإنسان ملتحفا بالخوف من السحر والسحرة والجن حياته كلها وكأنه لا دافع لهم ولا مانع منهم، فهذا مما يقدح في إيمانه بأن الله هو المسيطر وهو الحافظ وأن الأمر بيده وحده سبحانه، ولا تجد مثل هذا إلا ونهاية أمره إلا الالتجاء إلى السحرة ليدفع عن نفسه سحر غيره الذي يشك فيه، أو يعاديه بسحر مثله فيقع في الكفر العظيم.

ومن هذا الخوف أيضا **الخوف من العين**؛ والعين حق، ولكن أن تصبح العين عنده فاعلة بنفسها دون الله سبحانه وتعالى حتى يُخيل إليه أن كل من يحد النظر إليه بأنه أصابه بعينه، وكلما أصابه أو أصاب أهلَه بلاءٌ أو مرض اتهم من دخل عليه بأنه قد أصابه بعينه، ويسيء به الظن فيتوجس منه في كل حين، ولا يصيبه شيء أو بلاء إلا قال عينا أصابتني، وينسى تماما أن الله هو الحافظ وأنه لا تصيب عين إلا بإذن الله، وينسى أن عليه أن يتعلق بالله ويتوكل عليه في حله وترحاله وحياته وهو كافيه بإذن الله، لأنه لا يكون شيئ إلا بمشيئة الله سبحانه.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (التكوير: ٢٩)

ولذلك فعلينا أن نلجأ إلى من لن تضر عين إلا بمشيئته، ولن يصيب حاسدٌ محسودَه إلا إذا أذن الله بذلك، وعلى المسلم أن يستعيذ بالله من العين ومن كل شر كما علمه الله في سورة الفلق فقال تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ (الفلق: ١ – ٥)

ومن هذا الخوف أيضا **الخوف من العدوى** وهي حقٌ قد أيدتها السنة، وهي موجودة مشاهدة في الناس، وقد قال رسول الله ﷺ في هذا (لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ)[٢٨]، ومع ذلك فقد قال الرسول ﷺ : (لَا عَدْوَى، وَلَا هَامَةَ، وَلَا طِيَرَةَ، وَأُحِبُّ الْفَأْلَ الصَّالِحَ)[٢٩]، وأراد ﷺ بهذا إبطال ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن الأشياء تعدي بطبعها دون الله تعالى، فأخبرهم ﷺ أن هذا الشيء باطل، وأن المتصرف في الكون هو الله وحده، وإنما الأمر بيد الله، إن شاء انتقل الداء من المريض إلى الصحيح، وإن شاء سبحانه لم يقع ذلك.

ومثيل هذا في عصرنا الحديث هو الوسوسة الشديدة التي تصيب بعض الناس في حياتهم احترازا من العدوى، فتجدهم يبالغون في نظافتهم مبالغة تشق عليهم وتُصعّب عليهم حياتهم وحياة من حولهم، ناسين أن العدوى لا تحدث إلا بإذن الله، وغافلين عن أن بعض الناس قد يعيشون في أتم صحة وهم أقل الناس اهتماما بالنظافة لقصر ذات اليد، وغافلين أيضا عن أن الهواء الذي يتنفسونه ويدخل أفواههم به من الجراثيم والميكروبات والفيروسات ما لو أذن الله لها لأهلكتهم ولقضت عليهم، وهم قابعون يغسلون أيديهم عشر مرات خوفا من العدوى أن تصيبهم، وهم لا يشعرون أنهم بذلك يجرحون توحيدهم

---

٢٨ (رواه مسلم- كتاب السلام - 33 باب لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، ولا نوء، ولا غول، ولا يورد ممرض على مصح - حديث رقم ٢٢٢١)

٢٩ (رواه مسلم - كتاب السلام - 34 باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم - حديث رقم ٢٢٢٣)

بالله عز وجل بظنهم في العدوى ظن الفاعل بنفسه، ناسين أنها لا تحدث إلا إذا أذن الله لها بالحدوث.

وعلى المؤمن أن يتذكر دائما أن عليه حَفَظةً من الله دائمون عليه يحفظونه من أمور أوجدها الله لحكمة في عباده، **فحفظ الله لعبده هو الدائم وهو الأصل** الذي ينبغي للمؤمن أن يطمئن قلبُه إليه ويدعو دوامه عليه من الله رب العالمين. يقول الله تعالى:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١﴾ (الرعد: ١١)

عن ابن عباس : "يحفظونه من أمر الله" قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدرُه خَلَّوا عنه.

ولا يرد القدر إلا الدعاء ولهذا أرشدنا رسول الله ﷺ إلى سنن الأذكار بالليل والنهار، وإن كافة الأحاديث التي وردت في السحر والعين والعدوى **إنما وردت ليتعلق الإنسان بربه ويستعيذ به منها ويتوكل على الله فيها،** لا أن يعيش مرتعبا منها وشاكا في كل مَن حوله بسببها، فلو كانت العين فاعلة بنفسها دون مانعٍ من الله وحفظٍ لكانت عينُ حاسد واحد تقتل مئات كل يوم من الناس، ولاتخَذَهم الأعداء سلاحا ضد بعضهم!! ولو كانت العدوى لا مرد لها ولا مانع لما بقيَ على الأرض إنسان!!، فالأمراض لا تنقطع من بين الناس، والأوبئة تظهر من حين إلى آخر ثم تختفي، وهي موجودة لحكمة قدّرها الله منذ عُرف تاريخ الإنسان وقبل اختراع المضادات والأمصال، ولم يفنى الجنس البشري، ونحن إن أخذنا بالأسباب في الوقاية منها كما أمرنا الله ورسوله فليس معنى ذلك أن

العدوى حادث يحدث بنفسه أو أمر واقع لا محالة منه، بل إن الأمر كله بيد الله الذي يجب أن تتعلق القلوب به وبطلب الحماية منه من الأسقام والعين والسحر ومن شر الجن والإنس ومن شر كل دابة هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم، وكل هذا التعلق مع واجب الأخذ بالأسباب كما أمر الله، وعندئذ يكون كمال التوحيد لله رب العالمين.

وأخيرا هناك **الخوف من المستقبل** وما ينتظر الإنسان فيه، فيعيش الإنسان قلقا مضطربا لا يشعر بالاطمئنان ولا يشعر بسعادة مع كثرة نعم الله عليه في حاضره، وهذا الخوف يصيب أغلب البشر مسلمهم وكافرهم.

وأكثر أسباب هذا الخوف هو الخوف من ضيق الرزق وتغير الحال وفوات النعمة، أو الخوف مما قد يضمره له شخص أو رئيس له في العمل.

وهذا الخوف منشأه كله ضعف في العقيدة وضعف في التوكل على الله عز وجل، أو ضعف في الإيمان بأن الله هو الرزاق الكريم، وأن الله قد ضمن الرزق لكل دابة، وأن رزقه حتما سيأتيه، أو من ضعف إيمانه أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل، وقد يكون منشأ هذا الخوف هو من إساءة الظن بالله وأن الله سيضيق عليه.

ومن أسباب هذا الخوف أحيانا ما يكون أوهاما، وهو افتراض المرء في نفسه وقوع أشياء سيئة في المستقبل من تخيلاته وتوقعاته ليس لها في الواقع دلائل عليها، ولكنه يعيش في الخوف من حدوثها.

وعلاج هذا الخوف هو أن يوقن الإنسان يقينا جازما أن الذي ينفع هو الله، ولا يستطيع أحدٌ مهما بلغت قوته أن يضر أحدا إلا من بعد مشيئة الله، وأن الرزق من الله وحده،

وهو المتحكم فيه وحده، وأنه مضمون، ولن ينقص أبدا مهما حاول الجن والإنس في نقصانه. يقول الله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ (هود: ٦)

وليعلم العبد أن الله لا يفعل بعبده إلا الخير وهو يتولى الصالحين، وهو كريم لا يترك من يلجأ إليه ويتعلق به، ويستجيب لمن يدعوه، وعلى العبد أن يكون شاكرا لله على كل أحواله عالما أن كل ما قدر الله له خير، وأن الله لا يعجزه شيء ولا يحده سبب.

وليعلم العبد أنّ ما يتخيل حدوثه بلا دليل عليه ولا مقدمات هو من إساءة الظن بالله سبحانه. فمثلا لو ظل إنسان يتخيل ويفترض في نفسه أن رئيسه في العمل قد يناله بظلم فيظل متوجسا مترقبا خائفا من حدوث ذلك دائما، فهو إما أنه ينظر ويتعامل مع رئيسه على أنه يضر وينفع فهذا شرك بالله، أو أنه يعلم أن ذلك لا يحدث إلا من عند الله وفي هذا إساءة ظن بالله تعالى وهو من أقبح الآثام، لأن الله لا يُظن به إلا خيرا، وقد يوقِع الله به ظنونه لقوله تعالى في الحديث القدسي **(أنا عندَ ظنِّ عبدي بي فلْيظُنَّ بي ما شاء)**. [٣٠]

كما ينبغي للإنسان أن يُحسن الظن بربه ولا يتخيل وقوع السوء به إذا زالت نعمةٌ من الله عنه فييأس من فضل الله، ثم يجحد نعم الله بزوال نعمةٍ منها، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾ (هود: ٩)

٣٠ (رواه بن حبان- كتاب الرقائق باب حسن الظن بالله تعالى -حديث رقم ٦٣٣)

وليعلم المؤمن أن من يخافهم من رئيس أو شخص ممن جعل الله لهم سلطانا عليه إنما أمرهم بيد الله، وهم مجرد أسباب من أسباب أقدار الله فيه لا يملكون له نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله، واليقين في هذا يقينا لا التفات فيه إلى المخلوق هو حقيقة الإيمان بالله عز وجل، وحقيقة معرفة ربوبية الله عز وجل.

ويجب على المسلم أن يعلم وأن يوقن أنه بيده سبحانه وحده حفظ نعمته عليه بهذه الأسباب أو بتغيير الأسباب لأحسن منها، أو استبدالها بأفضل منها لمن حَسُن ظنه بالله وتوكل عليه، فمن الأولى عندئذ التعلق به سبحانه وحسْن الظن به، فالله هو الذي بيده كل شيء.

كما ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن ما يتخيل حدوثه بلا دليل عليه فكأنما بذلك ينفى قول الله سبحانه وتعالى:

﴿..... إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (يونس-من الآية: ٢٠)

فالمؤمن لا ينشغل بالغيب وما سيحدث له فيه، وهو يكله إلى الله تعالى، ولا يحمل هم الرزق ولا ينشغل به ويُكثر التفكير فيه، فينام هانئ البال. أما تخوفه من المستقبل وما سيحدث له فيه فهو من ضعف التوحيد فيه.

ويدخل في هذا هؤلاء الذين يسألون الناس أن يتنبأوا لهم مستقبلهم من الكهنة والسحرة والعرافين والرمالين، أو هؤلاء الذين يتتبعون تنبؤات الأبراج في الصحف، وقد جعل الإسلام إتيان هؤلاء من الشرك بالله تعالى لأن الله تعالى يقول:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (النمل: ٦٥)

فهؤلاء يشركون بالله تعالى في ظنهم بأن أحدا غير الله قد يعلم الغيب، وهؤلاء يقول فيهم رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»**.[٣١]

وهذه الأنفس التي تتشوف الى معرفة الغيب في مستقبلها عن طريق هؤلاء العرافين أو المنجمين، أو تتبع أخبار الأبراج التي تحكي عن مستقبل أصحابها في الصحف، إنما هي أنفس ضعيفة وخفيفة العقل وإن كانت ذات ذكاء وتعليم. لأن هؤلاء المنجمين والعرافين إنما هم كذبه يحسنون التمثيل على الناس واستخفاف عقولهم، والإسلام يرتقي ليس فقط بإيمان المسلم بل بعقله أيضا.

وإذا كان بعضُ كَذَبة من أجهل الناس يستطيعون الاستخفاف بعقول غيرهم من الناس، فمن باب أولى أن يستخف بعقولهم أيضا من يزينون لهم الباطل بالأكاذيب والتمثيلات المفبركة لتشوية الدعوة والدعاة والإسلاميين عن طريق الاعلام. وليس ببعيد عنا ما وقع للناس من جراء تلاعب الإعلام بهم وبعقولهم حتى أمسوا من ألد أعداء الداعين الى الله والكارهين لهم.

أما إذا كانت القلوب على عقيدة صحيحة قوية لا تحركها ولا تستخفها تلك الخرافات الشركية، فلن يؤثر فيها أيةُ أكاذيب مهما تفنن المخادعون في تلفيقها. وأظن أن هذا الارتباط الوثيق بين محاربة تلك الخرافات الشركية وبين محاربة أعداء الدعوة وتشويههم للدعاة مما لم ينتبه إليه الكثيرون.

وهكذا فإن فقدان أية ركن من أركان العقيدة أو ضعفه في قلوب المسلمين لا بد سيكون له الضرر الكبير المباشر على المجتمع المسلم وعلى مسيرة الإصلاح.

٣١ مسند أحمد بن حنبل - مسند المكثرين من الصحابة _ مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٩٥٣٦)

فالمؤمن قلبه متعلق بالله، ويكل المستقبل كله الى الله ولا ينشغل قلبه به، ولا يتبع الظنون والأوهام والتخرصات والخرافات. ومع تعلقه بالله وتوكله عليه وحده فإنه يأخذ بالأسباب كالطير تغدو كل يوم باحثة عن رزقها وتروح شباعا على ضعفها. عن عمر بن الخطاب ﷺ، أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: **«لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا »**[٣٢]

وتعلق القلب بالله وحده دون سواه في حاضره ومستقبله مع الأخذ بالأسباب هو صريح الإيمان بالله ولب التوحيد.

قلب التوحيد أن لا تجعل لغير الله في قلبك نصيبا، **ولب الإيمان** أن توقن بالله حاضرا في كل لحظة من حياتك وأنه هو المسيطر على كل سبب والقادر على كل شيء.

وعلى المؤمن ألا يعطي الأسباب أكثر مما تستحقها حتى لا يكله الله إليها، فتكون فيها هلكته أو قلقه وعدم سعادته، **فالنجاة كلها في التعلق بالله سبحانه وتعالى** فهو الذي لا يتغير، وبيده الأسباب كلها.

٣٢ (رواه والترمذي- أبواب الزهد باب في التوكل على الله -حديث رقم ٢٣٤٤)

الولاء و البراء

الولاء لغة يطلق على عدّة معان منها: المحبة، والنصرة، والاتباع، والقرب من الشيء، والدنو منه.

والبراء لغة يطلق على عدة معان أيضاً منها: البعد، والتنزه، والتخلص، والعداوة.

وشرعا تعرف الولاية بأنها هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام مع المحبوبين **ظاهراً وباطناً**، والبراء هو البعد والخلاص والعداوة بعد **الإعذار والإنذار**.

وتظهر معنى الولاية في وصفِ أحدهم لسيادةِ سيد من أشراف العرب على قومه فيقول عنه:" إن هذا رجل لو غضبْ، غضِبَ له مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب ".

هذا هو معنى الولاء وهو: أن تكون مناصرا متعصبا مطيعا متبعا لمن توالیه في رضاه وغضبه.

والولاء والبراء ركن من أركان العقيدة، وشرط من شروط الإيمان ينتفي بفقدهما الإيمان. ويظهر ذلك في قوله تعالى:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ (المائدة: ٨٠ – ٨١)

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ ﴾

(المائدة: ٥٥)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ:« **أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ- أَظُنُّهُ قَالَ - :أَوْثَقُ؟ " قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ» :الْمُوَالَاةُ فِي اللهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ** »"[٣٣]

فيجب لذلك على كل مسلم يؤمن بعقيدة التوحيد أن يوالي أهلها ويتبرأ من أعدائها، ولقد قال بعض أهل العلم:

" إن الله سبحانه وتعالى ما ذكر بعد الأمر بالتوحيد والنهي عن ضده وهو الشرك في القرآن الكريم أكثر من النهي عن موالاة الكفار لأهميته كركن من أركان التوحيد ".

والبراءة من الكافرين هي سنة أبينا إبراهيم الذي أمرنا اللهُ بإتباعها كما جاء في كتاب الله عز وجل، يقول تعالى:

﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ ﴾ (الممتحنة: ٤)

---

٣٣ **(المعجم الكبير للطبراني-باب العين -عكرمة عن ابن عباس-حديث رقم 11537)**

وفي موقف إبراهيم عليه السلام من أبيه يقول المولى عز وجل :

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾(التوبة: ١١٤)

ولتوضيح الولاء والبراء في مثال فاعلم أن بين الناس أنسابا وأرحاما وروابط بسببها يتناصرون، ويوالي لأجلها بعضهم بعضا فيما بينهم من أجلها، ويعادي الرجل الآخرين إن كانوا أعداءً لأهله وعشيرته أو جنسيته ووطنه وإن لم يكن بينه وبينهم خصومة خاصة، وهذا بسبب وشائج الرحم وروابط الاجتماع.

وإن لله نسبا هم أهل التقوى الذين اتبعوا رسوله واتبعوا سبيل المؤمنين، وأوجب الله على المؤمنين أن تكون ولايتهم في الله ورسوله وفيما بينهم دون الكافرين، وجعلها صفة لهم كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (التوبة: ٧١)

ومثال آخر: هل يرضى سيدٌ من عبدهِ المُستَرَقّ إلا أن يواليه عبدُه وأن يُعادي من يُعاديه؟ وهل يرضى سيدٌ من عبدهِ أن يجده مواليا لعدوه أو واداً له ومُناصرا ؟ **فكيف يرضى اللهُ من عباده غير ذلك؟!.** وهذا هو ما جاء في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾(الممتحنة: ١)

وقوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾(المجادلة: ٢٢)

فمن والى كل من يعادي اللهَ ورسولهَ والمؤمنين، أو جمع في قلبه مودةً ومحبةً لهم فقد ضل سواء السبيل.

وليعلم المسلم أن موالاة الكافرين هي صفة من صفات المنافقين، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار كما قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ النساء: ١٤٤ - ١٤٥

قال الطبري: "وهذا نهيٌ من الله لعباده المؤمنين أن يتخلَّقوا بأخلاق المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه".

وإن من العداوة للإسلام وللمسلمين ما تكون ظاهرة جلية مثل المشركين واليهود والنصارى، وهناك من العداوة ما تكون باطنه أو مستخفية وهي تكون في المنافقين، وقد كثروا في هذا الزمان، وهم الذين يُظهرون الإسلام ويرفضون شرعَه، ويريدون من الإسلام بعض المناسك، ولا يقبلونه منهجا لباقي حياتهم مثل الليبراليين والعلمانيين والشيوعيين، وكل مَنْ على شاكلتهم، وإن اختلفت أسماؤهم وأسماء أفكارهم التي يتسمَوْن بها، ويجددها الشيطان لهم..

وليحذر كل مسلم أن يميل بقلبه أيضا إلى هؤلاء المنافقين فلا يواليهم، لأن ولايتهم مثل ولاية الكافرين، وهم أشر منهم لخبث طويتهم، وما تُخفي صدورهم أكبر، وليحذر حلو كلامهم في دعواهم إلى الإصلاح وإلى الحرية والمساواة وحقوق الإنسان وحقوق المرأة، فكل هذا يؤمنون به على أساس ما تحدده أهواؤهم وعقولهم لكل قيمة مما يدعون إليه، ويرفضون تماما أن يجعلوا الدين محددا لها. ولكنهم يستخدمون تلك الشعارات حصانه لهم وخداعا منهم لعوام الناس، ليتحللوا من حدود الشرع، وقيم الإسلام وضوابطه وأحكامه.

وهم وإن اختلفت مفاهيم ومعاني هذه القيم عندهم من علماني إلى ليبرالي إلى شيوعي لكنهم جميعا يشتركون في ألا يجعلوا الدين مرجعا لهم وحداً فاصلا لا يتعدونه، بل هم حريصون على إزالة هذا الحد، وهم وإن قبلوا مضطرين في بعض الأحيان ببعض شرائع الدين فلا يقبلونها أبدا على سبيل الإلزام.

وقد يدافع بعضُهم أحيانا عن حق المسلم والمسلمة في ممارسة بعض شعائر الدين مثل لبس النقاب وإطلاق اللحية على أساس أن تلك الحرية وذلك الحق مكفول أيضا لمن يريد أن يتعرى ويفسق في المجتمع، ومنه الزنا والشذوذ ما دام بالتراضي، وتلك هي الحرية وحقوق الإنسان التي يريدونها والتي يرفضون فيها أن يتقيدوا بضوابط الإسلام.

فليحذر المسلم أن يتقرب إليهم، وأن يميل بقلبه إليهم، وأن ينخدع بهم فضلا عن أن يواليهم، فلا يواليهم ولا يحبهم إلا منافق مثلهم. يقول الله تعالى:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(التوبة: ٦٧)

وأما المؤمنون فيوالي بعضهم بعضا ولا يقطعون الولاية عن بعضهم أبدا مهما بلغت معاصيهم، ومن كان فيه إيمان وفيه فجور من المسلمين أُعطِي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية ولا تنقطع عنه الولاية بالكلية بمجرّد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة، وأيضا لا يُجعَل الصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة. يقول الله تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

(الحجرات: ٩–١٠)

فجعلهم اللهُ إخوة مع وجود الاقتتال والبغي بينهم، ولم يقطع الولاية كاملة عن الفريقين، فلا تنقطع الولاية إلا بالكفر المخرج من الملة، وتلك **نقطة أولى** في منتهى الأهمية يجب أن يعيها المسلم حتى لا يغالي في هذا الركن من أركان التوحيد، فلا تحل البراءة الكاملة إلا من كافر، وأما المؤمنون فمهما بلغ فيما بينهم من خصومة فلا تنقطع الولاية عن بعضهم أبدا، وهم جميعا في حوزة الإيمان مهما بلغت معاصيهم، فلذلك وجب الإصلاح بينهم على من هم خارج الفريقين المتخاصمين، وليس ولاية فريق والبراءة من الفريق الآخر.

فإن كان هذا هو حال الولاية بين فئات المؤمنين وإن قاتلوا بعضا، فما الحال لو كان الأمر بينهم لا يتعدى اختلافا في مناهج الإصلاح والفقه، وإن أخَذ بعضُهم على بعضٍ بعضَ الأخطاء أو الزلات. فكيف تنشب العداوة أو البغضاء بينهم لهذه الأخطاء أو الزلات، والأصل أن يوالي بعضهم بعضا كما قال الله تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (التوبة: ٧١)

ويقول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾
(الأنفال: ٧٣)

وإنه لمن القُبح بهم جميعا وهم دعاة إلى الله أن لا يكون شأنهم هو موالاة بعضهم بعضا وتقدير بعضهم البعض، وإن اختلفت مناهجهم وطريقتهم في الإصلاح والدعوة، فهذا ما يوجبه الإيمان عليهم، بل هذا ما يوجبه عليهم ركن من أركان العقيدة وهو موالاة المؤمنين

بعضهم بعضا إن كانوا يفقهون. ولإن استلم كل منهم ثغرا من ثغور الدين وقام عليه فسَدّه مع ولايته وتقديره لأخيه فسيوشك أن يعود للمسلمين عزهم وتوشك الخلافة أن تعود لهم، ولكن إن ظل كل منهم على ما هو عليه من العُجْب بما هو عليه وعدم ولاية أخيه فإني أخشى أن يكون مَثلُهم مثل من قال الله فيهم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (المؤمنون-من الآية: ٥٣)

وإنه ليس هناك صدع في جدار الذين يدافعون عن الدين أشد من أن يعادي بعضهم بعضا، وليس هناك منقصة في دينهم وإيمانِهم بل وعقيدتهم أعظم من ألا يوالي بعضهم بعضا، بل هو أصل الفساد الكبير.

والولاء والبراء هما عمل قلبي بالأساس، فهما لا يعنيان قتال الكافرين أو المنافقين بلا سبب، أو سوء معاملتهم وانتقاص حقوقهم بلا جريرة، وتلك:

نقطة ثانية في منتهى الأهمية ينبغي أن يعيها المسلم حتى لا يغالي في هذا الركن من أركان التوحيد، فالله تعالى يقول:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة: ٨)

وقوله تعالى ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي إن الله يحبّ المنصفين الذين يُنصفون الناس، ويعطونهم الحقّ والعدل من أنفسهم، فيبرّون من بَرّهم، ويُحسنون إلى من أحسن إليهم.

وأما **النقطة الثالثة** فهي في غاية الدقة والخطورة والالتباس عند كثير من الدعاة أنفسهم؛ فإن الإسلام لا يلوم على ما يُكنه المرء من مشاعر فطرية أو حب فطري نحو غيره من غير المسلمين ما لم يتعد ذلك إلى الولاء أو يتخطى البراء. فما يكنه المرء لأبويه أو لعمه أو خاله من حب فطري لا لوم عليه فيه ولا ثواب أيضا، حتى وإن كانوا على غير الإسلام بشرط ألا يشتمل ذلك على الولاء لهم؛ فالولاء إخلاصا لا يكون إلا لله ورسوله والمؤمنين. هذا إن لم يُظهروا أي عداوة للدين، فإن أظهروا أي عداوة للدين فعندئذ ينقطع هذا الحب الفطري فيتبرأ المسلم منهم كلية. وهذا ما كان من إبراهيم عليه السلام فيما قاله رب العزة:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ (التوبة: ١١٤)

ولقد كان رسول الله ﷺ شديدَ الحرص على إسلام عمه أبي طالب، ويحب إسلامه، ولم يعامله إلا بالبر، ولم يردَ عنه صلى الله عليه وسلام أنه أبغضه، وعامله بالإساءة لكفره. وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾
(القصص: ٥٦)

ولقد جلس عليه الصلاة والسلام عند قبر أمه بعد أن استأذن ربه في زيارتها، فأذن له الله عز وجل، فبكى ﷺ عند قبرها بكاء شديدا حتى أبكى من حوله، ولما استأذن ربه أن يستغفر لها لم يُؤذن له، لأنها ماتت قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، ولم يعاتبه الله عز وجل على طلبه.

فإذْن الله لرسوله بزيارة قبر أمه، وبكائه عند قبرها مما يدل على أن الإسلام لا يلوم على تلك المشاعر الفطرية التي أوجدها الله في بني آدم كلهم، والله هو الذي خلقها في بني آدم كلهم مسلمهم وكافرهم. ولكن دون ذلك أن يواليهم المرء إن كانوا كافرين، أو يرضى عن ما هم عليه من الكفر.

ولقد تألم رسول الله ﷺ ولم يستطع النوم لما سمع أنين عمه العباس بعد أن أسره المسلمون يوم بدر فشدوا عليه وثاقه، وقد كان العباس ﷺ قبل إسلامه ينافح عن رسول الله بمكة، وكان قد خرج مُستكرها يوم بدر. ومع ذلك أيضا فقد أخذ منه ﷺ الفداء مثل غيره من المشركين ولم يترك له درهما، وقال له: **(أَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا)**[٣٤].

ومثال يوضح ما سبق؛ لو أن رجلا أسلم بعد أن كان مشركا أو مسيحيا أو يهوديا، فهل يجب عليه بعد إسلامه أن يبغض أبوية وزوجته وأبنائه إن رفضوا دعوته إلى الإسلام؟؟

إن ما يجب عليه في الحال حين إسلامه أن تنقطع الولاية عنهم تماما فلا يعادي فيهم أو يوالي، وأن يبغض ما هم عليه من الكفر أو الشرك، ولكن المشاعر والحب الفطري نحوهم لا لوم عليه فيها. وكذلك ما يكنه نحو زوجته من مشاعر مما هو معروف بين الرجل والمرأة، والتي أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز فقال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١)

وفي قصة زينب بنت رسول الله ﷺ مع زوجها " أبو العاص" وهي قصة مطولة في السيرة ما يدل على ذلك.

---

٣٤ مسند أحمد ابن حنبل مسند بني هاشم مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حديث رقم ٣٣١٠

ولكن كل ذلك ينقطع تماما إن أبدى أحدٌ منهم عداوةً للإسلام وأهله. ومثل هذا مُشاهد في حياة الناس؛ فالحب الفطري الذي تحتفظ به لعمك أو لخالك ينقطع أو ينقص حين يُبدي أحدُهما أي عداوة لأبيك، وقد ينقلب الحب إلى كره وبغض بحسب تلك العداوة.

ولكن لا يشتمل قلب مؤمن على موالاة الكافرين بأي حال مهما كانت قرابتهم، أو محبةِ من يعادي الإسلام منهم والمسلمين أو طلب مودتهم، بل يبغضهم حينئذ لكفرهم ولعداوتهم لله عز وجل، وهذا شرط الإيمان حينئذ كما بينا من قبل في قوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾(المجادلة: ٢٢)

وأما ما كان منهم محاربا للإسلام والمسلمين فقد وجب مع البراءة منهم إظهار العداوة لهم، ومناصرة المؤمنين عليهم ما استطاع المؤمن إلى ذلك سبيلا إلا ما كان له عهد فيوفى له بعهده.

ومن هذه المشاعر الفطرية أيضا: ما يكنه المرء وما يحمله من حنين وحب لبلده التي هو منها، فتلك مشاعر فطرية لا علاقة لها بالإيمان كما يدعون، وتجدها في المسلم والكافر، بل قد تجرح الإيمان والتوحيد إن اشتملت على الولاء أو العداوة فيه، وهذا مما مَكَر فيه أعداء الإسلام ليجعلوا الولاء والبراء تبعا للوطن حتى يفرقوا بين شعوب المسلمين، وحتى يفسدوا عقيدة المسلمين في ركن الولاء والبراء، فإن أعداء الله وأعداء الإسلام يقفون لهذا الركن خاصة بالمرصاد ليهدموه في قلوب المسلمين لعلمهم بأنه عمود قوتهم ووحدتهم، وهم

يمكرون ليصرفوه عن الدين ليجعلوه لملك أو لوطن أو قومية، فلا يتحقق للمسلمين اجتماعٌ أبدا، ولا تعود لهم خلافة أبدا ما داموا على ذلك.

ولقد فهم صحابة رسول الله ﷺ الولاء والبراء من أول لحظة كانوا ينطقون فيها بشهادة التوحيد؛

فهذا عُمَر ﷺ حين أسلم فإذا به يتحول تحولا تاما فيَخرجُ للكافرين يجهر فيهم بالإسلام، فيقومون إليه ليضربوه، فيظل يصارعهم ويصارعوه، وقد كان منذ سويعات مواليا لهم ومن أشد أعداء المسلمين، فإذا به بعد الشهادتين يصبح مواليا لله ورسوله ومعاديا للكافرين.

وهذا مصعب بن عمير يَلقى أخاه أسيرا بعد بدر في يد رجل من الأنصار، فيقول له مصعب: أشدد عليه وثاقه فإن أمه غنية، فيقول له أخوه: أهذه وصايتك بأخيك، فيرد عليه مصعب: إنه أخي من دونك.

وهذا ثمامة بن أثال–سيد من سادات اليمامة– بعد أن أسلم ذهب إلى مكة معتمرا، فلما قدم مكة قالوا له: أصبوت؟ قال لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

فانظر لهم جميعا ماذا كانت تعني لهم شهادة أن **"لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله"**، وكيف فهموا منها وجوب الولاية فيها والبراءة مما سواها، وهذا بمجرد النطق بها، وذلك كله لأنهم فهموا أن معنى توحيد الألوهية يقتضي تمام العبودية له وحده، وتمام العبودية يقتضي تمام الولاية فيه له وحده والمعاداة فيه من يعاديه.

الحب في الله والبغض في الله

وأما الحب في الله، فإن من واجبات الإيمان ولوازمه محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومحبة عباده المؤمنين الصالحين، الملتزمين بهديه، ومحبة ما يحبه الله ورسوله من الإيمان والعمل الصالح، وما يتبع ذلك، وبُغض ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والمعاصي، وبغض أعداء الله من الكفرة والمشركين والعصاة والملحدين والمنافقين ومن يشاكلهم. فالحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله أوثق عرى الإيمان، وهي أحب الأعمال إلى الله تعالى. ومحبة الله تعالى ورسوله ﷺ مقدمة على محبة الأولاد والأموال والنفوس، وإلا كان ذلك نقصا في الايمان وفي توحيد الله عز وجل.

يقول الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (التوبة: ٢٤)

وفي هذه الآية أمرَ الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه، فآثرها أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويرضاها كالجهاد والهجرة ونحو ذلك. وقد جعل الله من يفعل ذلك من الفاسقين.

وعن النبي ﷺ: قال: **«مَن أعْطى للهِ، ومنَعَ له، وأحَبَّ للهِ، وأبغَضَ للهِ، وأنكَحَ للهِ، فقد استكمَلَ إيمانَه»** [٣٥]

٣٥ (رواه الترمذي ـ أبواب صفة القيامة والرقائق والورع -حديث رقم ٢٥٢١)

وعن النبي ﷺ: قال: **«ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»** [٣٦] وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

وخرّج ابن جرير عن ابن عباس قال:{**من أحب لله و أبغض لله ووالى في الله وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا**}، أي لا ينفعهم بل يضرهم، كما قال الله تعالى:﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ ﴾(الزخرف: ٦٧)

وتأمل كلمات ابن عباس وهو حبر الأمة، ومن الصحابة الكرام؛ وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم هم أعلم الناس بالدين بعد رسول الله ﷺ (**فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك**). فهذه الكلمات ترشدنا إلى ما هو الأهم في الدين، فعلينا أن نَعلَم ونُعلّم الناس أن أمرا واحدا من العقيدة لا تُقَدّم عليه صلاة ولا صيام ولا عبادة، ولا تجبره صلاة ولا صيام ولا عبادة، ولا يُغفر بصلاة أو صيام ولا بأي عبادة أخرى.

ولقد أوتيت الدعوة وأوتي الدعاة من قِبَلِ فقدان هذا الركن في عقيدة بعض المسلمين، حتى أمسى كثيرٌ منهم أعداءً لهم بسبب فقدانهم في إيمانهم لهذا الركن العظيم، فمِن المسلمين من يحافظ على الصلوات والصدقات، ولكنهم فاقدين في عقيدتهم لمعنى الحب في الله والبغض في الله. ولذلك؛ حدث في بعض البلاد لمّا اشتد اختلاف الناس فيما

---

٣٦ (-صحيح البخاري- كتاب الإكراه-باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر -حديث رقم ٦٩٤١)

بينهم وافترقوا فرقتين في صراع فاصل على الاصلاح والشريعة، وكان الدعاة في جانب كان هؤلاء في الناحية الأخرى التي تعادي الدعاة، وذلك لأنهم يبغضون الدعاة إلى الله والملتزمين بسنة رسول الله ﷺ، ويُصدِّقون فيهم كل حديث كاذب بلا تثبت ولا استبانة، ويتلمسون لهم الزلات ويعظمون عليهم الأخطاء.

ولقد حدث هذا لأن الدعاة إلى الله لم يعطوا أركان العقيدة حقها في دعوتهم وانشغلوا بما هو دونها على حسابها، وإن كانت أمورا عظيمة أيضا، ولم يتبينوا خطورة وتأثير ركن مثل الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله على حالات الصراع الفاصلة، وخاصة أن تأثيره لا يظهر جليا ومؤثرا وفاصلا إلا عند احتدام الصراع وانقسام الناس إلى فريقين أو فِرَق، ينصر بعضها بعضا.

وركن الحب والبغض في الله والموالاة والبراءة في الله، هو الذي استقر في قلوب المسلمين وفي عقيدتهم من عهد رسول الله ﷺ وبعده زمنا طويلا، حتى إنك لتجد ذلك في عُصاتهم!!!.

عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلد، فقال رجل في القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يُؤتى به. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»**[٣٧].

وتأمل أخي في القصة التالية التي رويت في محنة الإمام أحمد ابن حنبل وتخيل لصا!! ماذا يحمل في قلبه من دين وعقيدة، ومن ولاء وبراء، وحب للحق وأهله، وبراءة من الظلم وأهله وهو لص!!

٣٧ (رواه البخاري-كتاب الحدود -باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة- حديث رقم ٦٧٨٠)

بإسناد عن عبد الله بن أحمد ابن حنبل أنه كان يقول: كنت كثيراً أسمع والدي أحمد بن حنبل يقول: رحم الله أبا الهيثم ، فقلت: من أبو الهيثم ؟

قال: لما مُدت يدي إلى العقاب، وأُخرجت للسياط، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني ؟ قلت: لا. قال أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

فهؤلاء بعض من وقع في المعصية من الصحابة والسلف؛ كانوا على عقيدة من الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله أصح مما نجده اليوم في كثير ممن ظاهره التدين والعبادة وهو لا يهتم بحال المسلمين، بل إن منهم من يبغض الدعاة إلى الله، ويُصَدّق فيهم كل كذِب واتهام بلا تثبت ولا استبانة، ويتلمس لهم الزلات ويعظم عليهم الأخطاء !!!.

الرزق بيد الله وحده.

يقول الله تعالى:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾(الملك: ٢١)

ويقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ (فاطر: ٣)

هذه الآيات ينفي بها الله سبحانه أن هناك رازق سواه، ولذلك فإن يقين المؤمن بأن الله هو الرزاق ولا رازق سواه هو شرط كمال الإيمان ومن دلائل توحيد الله عز وجل.

ويقول الله تعالى:﴿....فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ (العنكبوت-من الآية: ١٧)

وفي غير القرآن يقال في تركيب الجملة "ابتغوا الرزق عند الله" ولكن جاء تقديم (عند الله) على المفعول (الرزق) في القرآن الكريم ليفيد الاختصاص، أي اجعلوا طلب الرزق مختصا بالله سبحانه وتعالى وحده.

وقد خلق الله العباد وسائر الخلق وتكفل بأرزاقهم، فقال سبحانه:

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾(هود: ٦)

إن قضية الرزق هي قضية البشر جميعا، فكلهم يسعى نهاره أو ليله أو كلاهما في طلب رزقه، وهي مصدر قلق الإنسان وخوفه في حاضره ومستقبله، وهي سبب التناحر والتنافس والعداوة والبغضاء والنفاق والمداهنة في أكثر الأحيان بين الناس.

ولذلك تجد أشدّ قَسَمٍ أقسم به الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز كان في معرض كلامه عن الرزق حين قال سبحانه:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾
(الذاريات: ٢٢ – ٢٣)

فقضية الرزق هي قضية مفصلية في التوحيد. فالإيمان بأن الرزق بيد الله وحده قولا يصدقه العمل شرط من شروط توحيد الله عز وجل الذي ضمن الرزق لعباده، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قَالَ : **«إِنَّ رَوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»**[٣٨]

والأحاديث التي جاءت في الرزق كثيرة، وكلها جاءت لكي تثبت بأن الرزق بيد الله وحده وليس لأحدٍ فيه شيء، وأن الناس إنما هم أسبابٌ لنيله من الله، وهم في الحقيقة مجرد أناس قد سخرهم الله لنا لننال الرزق من طريقهم، ولو لم نأخذه من طريقهم لأتانا حتماً من طريق آخر، لأن الله كتبه لنا، وحتما هو آت إلينا.

٣٨ (المعجم الكبير للطبراني- باب الصاد- أبا أمامة صدي بن العجلان- حديث رقم٧٦٩٤)

والله قد ضمن الرزق حتى لا يكون لإنسان حجة في طلبه بمعصية الله أو بِذلّةِ نفسه، وحين قال صلى الله عليه وسلم: (وأجْمِلُوا في الطَّلبِ) فلكي يرشدنا إلى طلب الرزق بكرامة وبالمحافظة على عزة النفس وعدم إذلالها، وقد جمع النبي ﷺ في استعاذته بين الفقر والذلة فقال ﷺ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلَمَ»** [٣٩]، لأن بعض النفوس الضعيفة يحملها الفقر على إذلال نفسها.

فالمؤمن مُطالب أن يحيا كريما وعزيز النفس في طلب الرزق، وفي كل فعل من أفعاله ومواقفه وأقواله التي تصدر عنه، فالعزة من صفات المؤمنين كما ذكر سبحانه في قوله:

﴿... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (المنافقون:٨)

ومن ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله من أجل الرزق، وأن تَحمدَهم على رزق الله، وأن تذمَّهم على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

وحين قال ﷺ في الحديث السابق **(ولا يَحملنَّ أحدَكم استبطاءُ الرزقِ أن يطلبَه بمعصيةِ الله)** لكي لا نستعجل ما كتبه الله لنا من الرزق فنطلبه بمعصيتهِ أو من طريقٍ حرام. فما دام أن الله قد كتب رزق العبد وهو في بطن أمه، ولن يموت حتى يدركه رزقه قبل موته، فإن من يطلبونه بمعصية الله إنما يطلبونه لأنهم لا يوقنون بذلك، وقد غرهم هواهم واستعجالهم. والعجيب أنّ من الناس من يبتغي الرزق بالحرام فلا يُحصّل شيئا وتجده فقيرا حياته كلها، وإذا جمع شيئا ضاع منه، وهذا ما هو مكتوب له من رزقه، وهناك آخرون يطلبونه من الحرام فيصبح أحدهم غنيا، وهذا ما هو مكتوب له، وكان

٣٩ (سنن أبي داود - باب تفريع أبواب الوتر- باب في الاستعاذة – حديث رقم ١٥٤٤)

سيأتيه حتما، ولكنه استعجله بمعصية الله لضعف إيمانه، وكان سيأتيه حتما بطاعة الله لو سعى وأخذ بالأسباب وصبر قليلا عن معصية الله.

وأما الخوف والوجل من فوات الرزق الذي يوجد لدى كثير من الناس فأسبابه أولاً: ضعف الإيمان وضعف الثقة بموعود الله سبحانه وتعالى، وأنه تكفل بأرزاق العباد. وثانيا: ضعف التوكل على الله المترتب على ضعف الإيمان وثالثا: هو الاستسلام لهمزات الشيطان و وساوسه، وكان الواجب طرده والاعتماد على الله، فالشيطان ضعيف وكيده ضعيف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿.... إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾(النساء: ٧٦)، ولكن إذا استسلم له المرء وسلّم الأمر له غلبه الشيطان، وملأه بالخوف والحزن والقلق على مستقبل رزقه.

ومما لا شك فيه أن المسلم مُطالب بالسعي في طلب الرزق، ولكنه مع ذلك مطالب بالاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وأن يدع عنه الخوف الذي ربما كان من أزّ الشيطان، ولتكن ثقته بالله قوية مع الأخذ بالأسباب المباحة.

وقد دعا الإسلام إلى العمل ورغّب فيه وطلب منا الأخذ بالأسباب، وجعل السفر من أجل البيع والشراء وطلب الرزق عبادة يؤجر عليها إن حسنت النية فيه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾(الملك: ١٥). ومرَّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ من جلَدِه ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيلِ اللهِ، فقال رسول الله ﷺ: **«إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»**[٤٠]

٤٠ (المعجم الأوسط للطبراني-باب الميم من اسمه: محمد- حديث رقم ٦٨٣٥)

وقد أباح الله لنا الطيبات ولم يحرم علينا إلا الخبائث، لكن ينبغي أن يكون المرء متوكلاً على الله ويترك الأمر لله، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿....وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾(الطلاق-من الآية: ٣)

لقد أخبر ﷺ أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، ولذلك فمن الخلل البيّن في العقيدة أن يخاف المرء فوات الرزق، والله هو الرزاق، وأن يخاف المرء من المستقبل وذلك كله بيد الله، وما عليه إلا أن يعمل ما في وسعه من الأسباب كما أمره الله.

وإن كثيرا من القصص التي تحدث للناس كل يوم لو تأملوها لَتؤكد لهم أن الرزق بيد الله وحده، وكثير من الصالحين تورعوا عن الحرام وأدى ذلك إلى فقدان مصدر رِزقهم الظاهر فما لبثوا أن رَزَقهم الله من حلال، وعوضهم الله خيرا مما كانوا فيه.

وينبغي للمؤمن أن يفرّق بين الأسباب ومُسببها، فالله تعالى هو مقدِّر الأسباب وموجدها، وقد سنّها لعباده وأمر بالأخذ بها، والبشر والوظائف والتجارات ما هي إلا أسباب من عند الله.

فالله تعالى قد قدَّر للرزق أسباباً، ومن اختلت عقيدته جعل الأسباب بمنزلة مسببها وموجدها. والإيمان والعقيدة الصحيحة ليس فيها اعتماد على الأسباب ونسيان مُسببها، وليس فيها قطع للأسباب والتخلي عنها. ومما قاله طائفة من العلماء في ذلك:

"الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد، والعقل ، والشرع"

إن الإشراك بالله في الرزق والالتفات إلى الأسباب هو من أعظم البلايا التي تصيب الناس، وهو أساس من أسس فساد المجتمعات والناس. وإن انتشارَ كثيرٍ من الأخلاق السيئة وأقبحها في كثير من المجتمعات الإسلامية يرجع جُلها إلى هذا السبب، وهو الإشراك بالله في الرزق، وأظهر هذه الأخلاق هي النفاق والكذب والتملق والوشاية والسكوت عن الحق ومماألأة الباطل من أجل الرزق، وكل هذه الدنايا كافية لهدم أي مجتمع وأي دولة، وبسببها يتمكن ويعلو المفسدون والفاسدون في مراكز الأمور فلا يجدون من يُنكر عليهم، بل يتملقهم الناس ويسكتون عنهم، ويظل أمثالهم ينتشرون حتى يملئوا المجتمع فسادا وفقرا، وكل ذلك جراء مجتمع أشرك بالله في الرزق ولم يوقن أن الرزق بيد الله وحده، وأنّ رزقه آت إليه لن يتعداه ولن يفوته مهما كره الكارهون.

وتخيل أخي الكريم مجتمعا تربى فيه الناس على أن الله هو الرزاق، وأن الرزق مضمون عند الله وحده، فهل يجد فاسد بين الناس أي فرصة ليعلن بفساده؟ ولو فعل لوجد كثيرا من الناس يقفون أمامه لا يخافون على فوات أرزاقهم لأنهم قد اعتقدوا أن الرزق بيد الله وحده، فينكسر أمامهم ويلتزم بالحق، وتخيل أخي أن الناس عكس ذلك.

والملاحظ في المجتمعات وفي كل مجتمع يحكمه ظالم مستبد أنه لا يعلو هذا الظالم إلا وحوله كثير من الظالمين والفاسدين الصغار في المجتمع، وكلما كثروا في طبقات المجتمع كلما قوي سلطانه على الناس، وكلما قلوا ضعف سلطانه وقدرته على الظلم، وقد رأيت بعض الجماعات المجاهدة في سبيل الدعوة تنشغل برأس الظالمين أكثر من انشغالها بالقضاء على هؤلاء الفاسدين والظالمين الصغار، وتنشغل عن أسباب نموهم في المجتمع، ولو أدركوا أن من أسباب انتشار هؤلاء الفاسدين الصغار، بل من أهم الأسباب على الإطلاق هو ضعف عقيدة الناس في الرزق لأعطوا من تصحيح عقيدة الناس في الرزق جهدا أكبر بكثير مما يفعلون في هذا الباب، ولصرفوا كثيرا من جهدهم الذي يبذلونه في مجاهدة الظالم الأكبر إلى تربية

الناس ليتخلصوا من الظالمين الصغار المنتشرين حولهم بلا كثير أذى أو ضرر، مثل ما يحدث لهم عند تحديهم ووقوفهم في وجه رأس الظالمين. وإن عجَز الدعاة والمصلحون والمجتمع عن هؤلاء الظالمين الصغار فعجزهم عن رأس الظلم أكبر، وإن تغلبوا عليهم أو استطاعوا إصلاحهم فقدرتهم على اصلاح رأس الظلم أو التغلب عليه أسهل.

ومن أجل هذا قلنا ونعيد القول: إن أصل كل فساد موجود في الأرض هو من تضييع معنى من معاني التوحيد والعقيدة، ولن ينصلح هذا الفساد إلا بإصلاح ما أصاب الناس في توحيدهم وعقيدتهم.

وقلنا ونقول مرة أخرى: دافعوا الفاسدين والظالمين، ولكن ابحثوا في أسباب نموهم بالبحث في أصل الخلل الذي أصاب عقيدة الناس ثم قوموا باصلاحه حتى لا يتكاثر هؤلاء أو نفشل في استئصالهم.

وقلنا إن الطبيب الماهر إذا أراد أن يعالج داءً فإنه لا يكتفي بعلاج أعراضه فقط، ولكنه يبحث أيضا عن أصله ليقضي عليه، ومن لا يفعل ذلك فإما أن يفشل في العلاج، أو سرعان ما يعود المرض بعد شفاء قصير، أو يتحول الداء إلى مرض مزمن، **وهل من غير ذلك تشكو الأمة** ؟!!!.

النافع هو الله

ولا يُضر أحد إلا من بعد إذنه

إن الإيمان واليقين بأنه لا ينفع ولا يضر سوى الله وحده هو من ألزم معاني الألوهية، لأن الإله ينبغي أن يكون هو القاهر وهو المسيطر على كل شيء، ولا يستقل أحدٌ بشيء دونه. وكل ما يحدث من نفع وضر من الناس إنما ذلك في الظاهر، ولكن الحقيقة أن كل ذلك من الله، بل إنه لا يحدث نفع ولا ضر في كل لحظة من حياة الإنسان له أو لغيره إلا من الله في تلك اللحظة. وقد أنزل الله آيات بينات فاصلات في أنه لا يلحق ضرر بأحد أو نفع بأحد إلا من قبله سبحانه العلي القدير.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ (يونس: ١٠٧)

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ (الأنعام: ١٧)

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ (فاطر: ٢)

وقال تعالى: ﴿... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ (النساء-من الآية: ٧٨)

كل هذه الآيات نزلت لتبني عقيدة المؤمن على أن النفع والضر بيد الله وحده، وأن الله هو الذي يعطي ويمنع ويقبض ويبسط، وفي دعاء النبي ﷺ: **« اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ »**[٤١]

وكيف يُظن بأحدٍ أن بيده نفع أو ضر، ولا أحد يدري كيف يفكر، وكيف تطيعه يداه التي تتحرك وفق إرادته التي منحها الله إياها، ولو شاء الله لجعلها شلاء لو أراد بكل عزيمته أن يحركها فلن تتحرك ذرة من مكانها.

وكيف يُظن بأحدٍ أنه يملك نفعا أو ضرا وناصية العباد كلهم بيد الله سبحانه، وقلوبهم بين إصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء.

وإذا كان الحي لا يستقل بفعل شيء دون الله سبحانه ولو كانت معه كل الأسباب، فما الحال بالأموات الذين انقطعت عنهم الأسباب وفارقوا الحياة الدنيا؟! أليس الظن بأنهم يملكون نفعا أو ضرا يدل على سذاجة في العقل قبل الشرك بالله عز وجل.

والظن بأن أحدا من العباد يملك نفعا أو ضرا على ضربين: **الضرب الأول اعتقادي**؛ وهو الظن بأن إنسانا أو حجرا أو أي شيء يملك نفعا في ذاته أو في رضاه بلا سبب، أو يملك ضرا في ذاته أو غضبه بلا سبب، مثل من يرجو نفعا في الاستغاثة بالجن أو في الاستغاثة بالمقبورين ممن يظنونهم أولياء، ولو كانوا أنبياء الله، فيدعونهم ويستغيثون بهم دون الله عز وجل، ويظنون بكل ذلك أنهم يتقربون إلى الله تعالى.

٤١ (رواه البخاري - كتاب الدعوات باب الدعاء بعد الصلاة- حديث رقم٦٣٣٠)

فالدعاء هو مخ العبادة، ولو اقتصر فعل المرء على الدعاء والاستغاثة بالمقبورين أو بغيرهم فهو يعبدهم بذلك من دون الله، وإن لم يسجد لهم، ومثله حينئذ في تبرير أفعاله وشركه بالله مثل من قال الله فيهم من الذين كفروا:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ (الزمر:٣)

وأما الأحجار فليس هناك أعظم من حجارة الكعبة، وأعظمها وأقدسها الحجر الأسود، ومع ذلك فهو لا يضر ولا ينفع في شيء، ولذلك فمن تمسح بها وفي قلبه شيء من الظن أنها تنفع أو تضر فقد أشرك بالله شركا بينا. ومن مسح على الركن اليماني ومسح الحجر الأسود أو قبّله اتباعا لسنة رسول الله ﷺ دون أن يظن بهما نفعا أو ضرا فذلك هو صريح الإيمان وصحيح العقيدة واتباع السنة.

عن عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبّله فقال: **« إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» .** [٤٢]

ولذلك فإن أي اعتقاد في شيء مادي بجلب النفع أو دفع الضر هو من الشرك بالله، مثل من كان يعلق شيئا فوق باب بيته أو على باب بيته(حدوة فرس مثلا)، أو يعلق على رأسه تميمة وما شابه فكل ذلك من الشرك.

٤٢ (رواه البخاري- كتاب الحج باب ما ذكر في الحجر الأسود-حديث رقم- ١٥٩٧)

وبعض الشباب اليوم يعلق أسورة في يده مغناطيسية أو بلاتينية أو غير ذلك، ويدعي أن لها فوائد، فإن ثبت علميا على التأكيد تلك الفوائد فهي مثل غيرها من الأدواء التي يتداوى به الناس، نتداوى بها ونحن لا نعتقد فيها بل نعتقد أن الشفاء من عند الله. وأما إن كان الأمر كله مبني على الظن والإشاعات ولم يقم عليه دليل علمي ثابت ومؤكد فهي من الظن واستدراج الشيطان، ويجب علينا الحذر من استدراجه، وأما الظن فإنه لا يغني من الحق شيئا.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (يونس: ٣٦)

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ (النجم: ٢٨)

فعقيدة المؤمن وأي فعل يتصل بها ليس فيها شيء من الظنون أبدا أو الأوهام، وهي من طرق الشيطان في استدراج الناس إلى الشرك الصريح. وحتى الرُقى التي تُعلّق وفيها شيء من القرآن، فلم يَرد بها نص أو فعل عن رسول الله ﷺ. إنما ينفع الإنسانَ بإذن ربه الأذكارُ والرقى التي وردت عن رسول الله ﷺ وقراءة القرآن.

وإن كثيرا من الدعاة اليوم وفي العقود الماضية جعلوا جُلّ اهتمامهم في محاربة تلك الشركيات الحاصلة في الرقى والتمائم وما شابه، دون أن يردّوا ذلك إلى أصله والتركيز عليه، وهو ضعف علم الناس بهذا الركن العظيم من أركان التوحيد، وهو أن الله وحده هو الذي ينفع وهو الذي يضر، ولذلك انحسرت تلك الشركيات الظاهرة، ولكن الشركيات الباطنة ما زالت موجودة في الناس وهي أشد انتشارا، وهي الضرب الثاني من الشرك.

أما **الضرب الثاني فهو سببي**: أي الظن في إنسان أو غيره بالنفع والضر بما يملك في ظاهره من أسباب أعطاه الله إياها تنفع وتضر مثل رئيسك في العمل، ومثل الأدوية التي يتداوى بها الناس. وتلك الأسباب هي من سُنّة الله تعالى في الحياة، وهو يتحكم فيها بلطفه الجميل، وعلمه الممتد، فيصرّفها كيف يشاء في عباده، وقد جعلها الله بينهم لحكمة، وليختبر بها إيمانهم، ويتواصلون بها بينهم بالخير أو بالشر، ومع كل ذلك كله فإنه لا يكون خير ولا شر ولا نفع ولا ضر في كل لحظة وفي كل مرة يحدث فيها النفع أو الضر إلا بإذن الله. وإنما يفعل الله ذلك من حيث لا يشعر العباد، وقدرُ الله المكتوب واقع لا محالة ولكن بلطفه الخفي في أفعال عباده، كما قال الله تعالى على لسان يوسف: **(...إن ربي لطيف لما يشاء)**

قال تعالى ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

(يوسف: ١٠٠)

فما زاد ما فعل أُخوةُ يوسف به إلا أنهم دفعوه إلى قدر الله فيه، ليتبوأ حكم مصر، ولتتحقق رؤياه، ويخروا له جميعا سجدا كما كتب الله عليهم وقدّر.

وتلك الأسباب كما قلنا هي من سنة الله تعالى في خلقه وكونه، ولذلك لا ينبغي التعدي عليها أو تركها أو التغافل عنها، فليس ذلك من الإيمان أبدا، ولكن لا ينبغي الاعتقاد فيها ونسيان أن الله هو المقدر لها، والآذِن بحدوثها، وهو يصرّفها كيف يشاء بلطفه وحكمته العظيمة.

ولذلك فالإيمان يقتضي الأخذ بالسبب وعدم تركه، مع الاعتقاد التام واليقين المطمئن في أنه (السبب) لا ينفع ولا يضر، ولا يتم نفع ولا ضر إلا بالله ومن بين يديه.

فلو أن إنسانا يعمل عند صاحب عمل فينبغي أن لا يتعدى عليه بقول أو فعل، وينبغي أن يعطيه حقه في العمل والمعاملة، ولكنه في نفس الوقت ينظر إليه على أنه مجرد سبب ينال مِن عنده ما كتبه الله له، ولن يتعدى صاحب العمل قدْره أكثر من ذلك، فما كتبه الله للمرء كائن لا محالة ومن أي سبيل سيكون.

فإذا كان السبب لا يُحدث نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله فلا ينبغي للمؤمن أن يأتي من أجل السبب ما يُغضب الله عز وجل، فينافق أو يَرضى بالذلة في نفسه أو يبذل من كرامته، وقد خلقه الله كريما وضمِن الله له الرزق فلن ينقص أبدا وان اجتمعت الإنس والجن على نقصانه.

وهذا مما يجب أن يكون في عقيدة المؤمن، ويمتلئ به قلبُه، لأنه معنى من معاني الألوهية ولازم من لوازم كلمة التوحيد (**لا إله إلا الله**)، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على زرع تلك العقيدة في أنفس الصحابة حتى الغلمان لنعلم أهمية تربية المجتمع عليها وألا نغفل عنها.

في الحديث عن بن عباس أن رسول الله ﷺ قال له:

«يا غلامُ، إني أعلِّمُك كلماتٍ.....،واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفَ» . [٤٣]

٤٣ (رواه الترمذي-أبواب صفة القيامة والرقائق والورع - حديث رقم ٢٥١٦)

وبقدر يقين المسلم واطمئنانه بأن الله هو الذي ينفع ويضر يكون إيمانه بالله عز وجل، ويكون اطمئنانه في الحياة الدنيا، أما إذا ضعف يقين المرء بأن النفع والضر بيد الله وحده فإنه يعيش مضطربا ضعيفا في حياته بقدر ضعف إيمانه. ولو سأل المرءُ نفسه متى يُنافق الإنسان أو يخاف ؟ ومتى يَخْنع أو يتذلل ؟ لكانت الإجابة هي عندما يشعر أن هذا الإنسان الذي يخنع له ويتذلل له أو ينافقه يمكن أن ينفعه أو يضره، أليس كذلك ؟!

فالمسلم حين يخضع ويتذلل لمخلوق من أجل نيل خير منه فقد أضر بتوحيده لله، وإن كمال التوحيد أن تعتقد أن لا أحد في الكون بِإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك سوى الله. ومِن أحسن ما قيل في ذلك شعرا:

لا تخضعنْ لمخلوقٍ على طمعٍ فإنَّ ذلك نقصٌ منك في الدين

لن يقدر العبدُ أن يعطيك خردلةً إلاّ بإذن الذي سوَّاك من طينِ

فالأسباب والأفعال كلها بيد الله، وهي مقدرة مكتوبة، وليس فقط أفعال الأحياء، بل الجمادات أيضا. فالأسباب المادية ينبغي أن لا نعتقد فيها نفعا ولا ضرا، وإن كان ظاهرها كذلك، ولخص العلماء ذلك بقولهم "**عندها لا بها**" أيْ الأشياء تفعل فعلتها بِمشيئة الله، فالدواء لا يفعل فِعله حتى يشاء الله، وحتى السكين لا تقطع إلا إذا أراد الله ذلك، ولا النار تحرق إلا بمشيئة الله، ولذلك سكين الخليل إبراهيم لم تقطع ولم تذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام، ولم تحرق النار إبراهيم عليه السلام لأن الله لم يأذن لهما بذلك، فيجب أن نعتقد أيضا أن فاعلية الأشياء بيد الله وبالله وحده.

فإذا أيقن العبد أن لا نافع إلا الله، ولا يَضر سوى الله، فإنه يعيش مطمئنا راضيا عزيزا بالله عز وجل، يطلب الحياة الدنيا بأسبابها وقلبه متعلق بربه ومتوكل عليه، ويعلق رجاءه بالله وحده، وهذا هو مراد الله في عباده من كلمة التوحيد، وهو أن يعتصموا بالله وحده ويَدَعُوا مَنْ هو دونه مِن الخلق، فلا ينظروا إليهم في أعمالهم ومعاملاتهم إلا على أنهم مجرد أسباب فيُخلصوا لله عز وجل، وأن يضعوا همومهم وأحزانهم وشكواهم بين يدي الله عز وجل وحده لا شريك له، لأنه مدبر الأمر والمحيط بكل شيء، وهو القادر القاهر فوق عباده، فيحقق بذلك العبد الغاية من كلمة التوحيد بعد العلم بالله وهي :

أن يكون قلب المؤمن متعلقا أبدا بالله وحده دون الخلق أجمعين.

الحب والقبول

المقصود بالمحبة هنا هي محبة الله عز وجل ولما أنزله، والقبول التام بما جاء به في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ.

إن محبة الله هي من أعظم لوازم التوحيد، فإن الله الموصوف بكل جميل يجب أن يُحب، والذي خلق فسوى وأنعم ورزق يجب أن يحب ولا يُكره، ولا يَكرهه إلا جاحد كافر، ويجب أن تكون محبتة فوق كل محبة، ولا يساويها شيء، فليس أحد مثل الله، وليس لأحد فضل ونعمة إلا ومردها إلى الله تعالى.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ (البقرة: ١٦٥)

والشاهد من هذه الآية أن الله جعل هؤلاء الذين ساووا محبته بمحبة غيره مشركين وجاعلين لله أندادا. فقد جعل الله المحبة شركا إذا أحب العبد شيئا كمحبته لله، فيكون بذلك مشركا مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله فوق كل شيء ولا يعادله (يساويه) فيها أحد، حتى محبة رسول الله ﷺ ؛ فلولا أنه رسول من عند الله ما وجبت طاعته ولا محبته.

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟! وهذا قد تجده في بعض المنتسبين للإسلام اليوم وهم ضالة ومبتدعة المتصوفة–لا كل أهل التصوف–؛ فإنهم يحملون حبا لأوليائهم ممن هم أحياء أو أموات أكثر مما يحبون الله سبحانه وتعالى.

ولا يُمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته؛ كالولد، والزوجة، والأموال وغيرها ولكن، لا يجعل ذلك كمحبة الله، والله سبحانه وتعالى هدّد من يجعل محبة هؤلاء أو غيرهم فوق محبته سبحانه وتعالى كما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (التوبة: ٢٤)

فالمؤمن إذا عرض له شيء من أمر الدنيا وأمر آخر لله تعالى قدّم ما هو لله على ما هو للدنيا، ولا يزال الرجل يقدم دائما شيئا من أمر الدنيا على الآخرة حتى يصبح عبدا له، مثل ما جاء في الحديث: **« تعسَ عبدُ الدِّينارِ، وعبدُ الدِّرْهَمِ، وعبدُ الخميصَةِ، تعسَ وانتكسَ وإذا شيكَ فلا انتَقَشَ»**[٤٤]، وهذا لا ينطبق عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ **(الفاتحة: ٥)**

إنّ من عَرفَ الله حقا لم يكن إلا ليُحبه، فإن الله متصف بكل جميل، وهو لا يريد بعباده إلا الخير، وإذا ابتلاهم أو مسّهم بضر فهو يبتليهم ليطهرهم من السيئات رحمة بهم من عذاب يوم القيامة، أو أنه يريد أن يرفع درجتهم تكرمة منه لهم في الآخرة، لأن الآخرة أعظم أجرا وثوابا ولا تعدل الدنيا منها جناح بعوضة. حتى العاصون والكافرون منهم فإنه يبلوهم ليتفكروا فيرجعوا إلى ربهم خالقهم، ويتوبوا إليه قبل يوم القيامة، وذلك قول الله تعالى:

٤٤ (رواه بن ماجه-كتاب الزهد (9) باب القناعة حديث رقم ٤١٦٩ - وأخرجه البخاري حديث رقم (٢٨٨٧) باختلاف يسير)

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ (السجدة: ٢١)

﴿...وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨﴾ (الأعراف-من الآية: ١٦٨)

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾(الروم: ٤١)

والله عز وجل يمهلهم برغم إيذاء البعض منهم لأوليائه من المؤمنين رحمة منه لهم أن يتوبوا وينجوا جميعا من عذابه يوم القيامة، وهو عز وجل يجزي المؤمنين بأعظم مما أُبتلوا به يوم القيامة، حتى يتمنى أحدُهم يوم القيامة أن لو قرض بالمقاريض ونُشر بالمناشير من كرامة الله له على إيذائه في سبيل الله عز وجل.

ومن رحمته تعالى أنه بعث الرسل مبشرين ومنذرين، فهو إن لم يبعثهم لم يكن للناس على الله حجة بعد أن أخذ الميثاق عليهم في عالم الذر، وهم الذين ارتضَوا أن يحملوا أمانة التكليف وابتلاء الاختبار.

ومن رحمته أنه يصلح بين المتخاصمين يوم القيامة من عباده المؤمنين، حين يقف المظلوم ليطلب من ربه أن يأخذ له الحق ممن ظلمه، فيرغّبُه الله في العفو عن أخيه بما عنده من المثوبة والجزاء العظيم.

وإن من رحمة الله أنه يأذن يوم القيامة في الشفاعة للأنبياء والصالحين والشهداء تكرمة منه لهم، ورأفة بالعصاة من عباده، ثم يبسط هو رحمته ويغفر مغفرة عظيمة حتى يتطاول إليها إبليس رجاء أن تصيبه.

فالله لا يحب لعباده الكفر، ويرضى منهم الشكر، وهو رؤوف بهم أن يدخلوا النار، وهو باسط يده بالليل والنهار لكل عبد يريد التوبة إليه، وهو يغفر كل الذنوب إذا تاب العبد وأناب إليه، ولو أتاه بقراب الأرض خطايا إن أتاه لا يشرك به شيئا.

عنْ أَنَسِ بن مالك ، عن النبي ﷺ قال: **«يقولُ اللَّهُ تعالى لأهْوَنِ أهْلِ النّارِ عَذابًا يَومَ القِيامَةِ : لو أنَّ لكَ ما في الأرْضِ مِن شيءٍ أكُنْتَ تَفْتَدِي بهِ؟ فيَقولُ: نَعَمْ، فيَقولُ: أرَدْتُ مِنْكَ أهْوَنَ مِن هذا، وأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ: أنْ لا تُشْرِكَ بي شيئًا، فأبَيْتَ إلّا أنْ تُشْرِكَ بي»**.[٤٥]

وما يصعب على بن آدم أو يضيره في أن لا يشرك بربه؟!

ماذا يضيره إن أفرده بالصلاة والدعاء والنسك؟!

ماذا يضره إن حَكَم بشرعه وارتضى حكمه؟!

وماذا يضيره لو أنه طلب الرزق عنده ولم يرجو غيره، وهو الذي يملك كل شيء، وبيده كل شيء، وليس لأحدٍ غيره شيء، وهو الكريم سبحانه؟!!

ما أيسر توحيد الله على العبد وما أيسر مطلوب الله منه، وهو يجزيه به جنة عرضها السموات والأرض، ومغفرة تسع السموات والأرض، ولا يهلك بعد ذلك على الله إلا هالك.

٤٥ (رواه البخاري- كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار- حديث رقم ٦٥٥٧)

وإن رباً بكل هذه الصفات وبتلك الرحمة ينبغي ألا يُظن به إلا خيرا، ولا يَظُن به شرا إلا من خبثت نفسه، وكان أهلا لما ظنّه بربه، ولذلك قال الله تعالى في حديثه القدسي: **(أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)**[٤٦]

واللهُ لا يليق به إلا كل ظنٍ حَسَن، ولذلك فإن حُسْنَ الظن بالله من الإيمان، وقد أوصى رسول الله ﷺ فقال: **(لا يموتَنَّ أحَدُكم إلّا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ باللهِ جلَّ وعلا)** [٤٧]، ولهذا فإن المؤمن لا يظن بربه إلا كل ظنٍ حسن، ولا يهلك بسوء ظنه إلا من ساءت نفسه وساء عمله.

ومن أحب الله حقا وصدقا أحب كل ما يتصل بالله عز وجل، فأحب دينه وأحب رسوله ﷺ وجميع أنبيائه، وأحب جميع المؤمنين بلا استثناء. ومن أحب الله حقا وصدقا أحب أن يهتدي جميع الناس إليه، وأحب أن يدخل جميع الناس في دينه لأنه هو الله الذي لا إله غيره المستحق بالعبادة وحده.

ومن أحب الله صدقا أحب أيضا للمسلمين أن يلتزموا طاعته، وأن لا ينحرفوا عن هدي نبيه، فدعاهم إلى اتباع منهجه وسنة نبيه، فكل ذلك من صدق محبة العبد لله عز وجل ودليل عليه. فالدعوة الى الله هي من أعظم الأدلة على صدق محبة العبد لله ولدين الإسلام.

وليس شرطا في الدعوة الى الله أن يكون الإنسان عالما فقيها، فالدعوة الى الله ولو بكلمة طيبة بسيطة بما يعلم المسلم عن دينه أو بإهداء كتيب بسيط ومثل ذلك لدليل على تلك المحبة، وكم من أناس اهتدوا على أيدي مسلمين ليس لهم كثير علم أو فقه في الدين، إلا أن قلوبهم امتلأت محبة لهذا الدين فدعت إليه، فهدى الله على أيديهم من أراد الله له الهدى.

---

٤٦ (رواه بن حبان- كتاب الرقائق باب حسن الظن بالله تعالى -حديث رقم ٦٣٣)

٤٧ (رواه بن حبان- كتاب الرقائق - باب حسن الظن بالله تعالى ذكر حث المصطفى ﷺ على حسن الظن بمعبودهم -. حديث رقم ٦٣٨)

وأما القبول فإن معنى الإسلام أساسا هو الانقياد التام لله تعالى، **أمرا ونهيا واعتقادا وقولا وعملا**، وأن تكون حياة المرء قائمةً كلها على شريعة الله، يُحل ما أحَل الله، ويحرم ما حرم الله، ويخضع في سلوكه وأعماله وتصرفاته كلها لشرع الله، متجردا من حظوظ نفسه ونوازع هواه. ولهذا فإن القبول بما جاء الله به وبحكمه، أو بما جاء على لسان رسوله ﷺ وحكَمَ به من شروط الإيمان، وإن كراهية أي شيء مما عند الله كفْر، ولو كان شيئا واحدا لقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾

(محمد: ٨ – ٩)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾ (النساء: ٦٥)

والله تعالى يُقْسِمُ بنفسه المقدسة في هذه الآية أنه لا يؤمن أحد حتى يرضى بحكم رسوله ﷺ في جميع الأمور، فما حَكَم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا.

فلا يتم إيمان العبد إلا إذا آمن بالله ورضي حكمه وحُكم رسوله في القليل والكثير، وتحاكم إلى شريعته وحدها في كل شأن من شئونه، في الأنفس والأموال والأعراض، بل وينبذ غيرها من الشرائع والأديان.

كما أن عدم القبول لحكم الله والصد عنه هي سمة المنافقين الذين يفضلون التحاكم إلى حكم أو شرع غير شرع الله، وفيهم يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ (النساء: ٦٠ – ٦١)

وما أكثر هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالله ورسوله وهم يرفضون أن يأتوا لحكم الله وحكم رسوله ﷺ، ما أكثرهم هذه الأيام. ولقد انتشر كثير منهم يزعمون الإسلام بيننا ويدّعون أنهم مسلمون وهم كارهون لما أنزل الله، وامتلأت بهم القنوات الإعلامية والفضائية، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ منها كراهتهم لتعدد الزوجات ومحاربتهم لهذا الحكم بشتى الوسائل، وكراهتهم لما أنزل الله من الحدود كحد السرقة، وجلد شارب الخمر، والقصاص من القاتل عمداً ونحو ذلك، فهذه الأمثلة وغيرها تبين مدى كره المتفوهين بها لما أنزل الله، فإن كره أحدهم ما أنزل الله على علم بحكمه فقد أخرج صاحبه من الإسلام.

ولقد بدأ يقتنع بكلامهم كثير من المسلمين بسبب علو صوتهم وغلبتهم على الإعلام من ناحية، وبسبب إهمال الدعاة إلى الله لهذا الجانب في دعوتهم من ناحية أخرى، وهي مصيبة عظيمة في دين الناس، فإن الناس إن كرهوا بعض أحكام الشرع وكان عندهم بمثابة المستشار في حياتهم، إن أحبوا أخذوا عنه وإن كرهوا تركوا منه خيف عليهم الوقوع في الكفر.

فالإله هو الذي يُطاع ولا يُعصى بأي حال، وحُكْمه أحسن الحُكْم، وشرعه أحسن الشرائع، وليس أحسن من الله حُكما لقوم يوقنون، وليس أحسن من الإسلام دينا لقوم يعقلون، ومن تحول إلى شيء آخر غير الإسلام فإنما تحول إلى جهل وجاهلية.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (المائدة: ٥٠)

ويقول تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾(البقرة: ١٣٨)

وكل ما سبق يدل على وجوب تحكيم شرع الله ظاهرا، والقبول به باطنا، بلا انتقاص أو اعتراض، والتسليم التام لأوامر الله وأحكامه التي جاءت في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، و لا يتم إيمان العبد إلا إذا آمن بالله، ورضي حكمه في القليل والكثير، وتحاكم إلى شريعته وحدها في كل شأن من شئون حيانه، في الأنفس والأموال والأعراض.

تعظيم اللّه عز وجل

(ما لكم لا ترجون لله وقارا)

الإيمان بالله تعالى مبني على التعظيم والإجلال له سبحانه وتعالى، حيث جاء في تعريف العبادة أنها تعظيم الله وامتثال أوامره. فتعظيم الله من العبادات التي خلقنا الله لتحقيقها، فهو الملك العظيم المتكبر المتعالي على الخلائق جميعا.

ومن عرف الله عرف أحقية الله عز وجل بالتعظيم، وعظّم شرعه، وعظّم دينه، وعرف مكانةَ رسُلِه، وكلما كان العبد أشد معرفة بالله كان أشد لله تعظيما، وأشد له إجلالا، وإذا عظّم القلب ربه خضع له سبحانه، وانقاد لحكمه، وعظم كل ما يتصل بالله تعالى.

والله جل وعلا العظيم الذي قد جاوزت عظمته عز وجلَّ حدود العقول، ولا يستحق أحد من الخلق أن يُعَظَّم كما يُعَظَّم الله، ومن عظمته اندك الجبل لما تجلى سبحانه له.

يقول تعالى :﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ (الأعراف:١٤٣)

ومن الأحاديث الدالة التي تظهر عظمة الله عز وجل ما رواه أبو ذر ﷺ قال: قال رسول الله-ﷺ-:**«ما السَّماوات السّبع في الكُرسيّ إلّا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكُرسيّ كفضلِ تلك الفلاةِ على تلك الحلقةِ»**[٤٨].

٤٨ صحيح بن حبان- كتاب البر والإحسان باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- حديث رقم ٣٦١ . (هذا الجزء صح مرفوعا)

فهذا الحديث يبين عظمة السماوات وعظمة الكرسي والعرش، والله فوق العرش؛ ونحن بني آدم لا نساوي شيئاً أمام هذه المخلوقات العظيمة.

وإن التعظيم لله سبحانه هو أساس يقوم عليه دين الإسلام. بل إن روح العبادة في الإسلام هو التعظيم، ولكن هذه الروح للأسف قد غابت حقيقتها عند كثير من المسلمين اليوم في عباداتهم وعلاقتهم بالله سبحانه وتعالى.

يبين شيخ الإسلام ابن تيمية أهمية تعظيم الله سبحانه وإجلاله فيقول:

"فمن اعتقد الوحدانية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ثم لم يُتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام، بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو بالفعل، كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجباً لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح"

لذلك فإن من أعظم العبادات القلبية–وهي أعظم من عبادات الجوارح–هو أداء العبادة والقلب ممتلئ بالتعظيم للخالق، وقد تكون العبادة أعظم ثوابا ورضا عند الله وإن قصرت أو قلت عن مثلها التي لم يستحضر فيها صاحبها التعظيم والإجلال لله رب العالمين. وإن الذي ميز صحابة رسول الله ﷺ ليس أنهم كانوا أكثر صلاة وصياما ممن جاء بعدهم، بل بما وقر في قلوبهم من هذه العبادات القلبية من تعظيم ومحبة وإخلاص، وهذا الذي فضل أبا بكر على سائر الصحابة كما قال بعض السلف (**ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره**).

وقد يظن البعض أنه لا أحدَ من المسلمين يقع في مثل هذا الاستخفاف والازدراء بالقول أو بالفعل للدين أو لشعائره إلا من عرفنا عنهم النفاق وكراهية الدين، ولكن للأسف ليست هذه الحقيقة، بل وقع فيها كثير من المسلمين حتى الدعاة أنفسهم عن جهل منهم أو عدم فقه!!

والأمثلة ستوضح مدى انتشار أحاديث بين المسلمين، وبين الملتزمين والدعاة أنفسهم لا تحمل تعظيما لله وتعظيما لشعائره عز وجل أو رسُله أو القرآن أو لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك ما يقع من العوام على ألسنتهم من كلمات يستخفون بها أموراً من الدين وهم لا يشعرون. فمنها مما يقع على ألسنتهم من أمثلةٍ يقتبسون فيها كلمات من القرآن في كلّ مناسبة مثل: لا أفعل كذا ولا هم يحزنون !! وقد جاءت هذه الكلمات ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (البقرة-من الآية: ٨) في أشرف مقام، وهو بيان حال أهل دار السّلام.

وأيضا استعمال عامة الناس للقرآن وكلام الله فيما لا يليق مثل التجارة، وانتشرت بينهم حتى لم يعد لها مُنكِر!!. مثل أن يكتب بائع العصير على محله ﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ (الإنسان- من الآية: ٢١.) ولا يليق بالمسلم أبدا أن يقتبس شيئاً من القرآن أو الحديث للأغراض الدنيئة أو يكتبه عنواناً أو دعاية لصناعة أو مهنة أو عمل خسيس، فالقرآن لم يتنزل لهذا، ولكن الناس لا تفقه ما تفعله، وخاصة أن من ينبغي لهم أن ينصحوهم ويرشدوهم تقع منهم مثل أخطائهم.

وأسوأ من ذلك وأقبح أن يُستعمل القرآن في الشتم والسب مثل أن يتعدى أحدُ الناس على آخر فيرد عليه الآخر: ﴿...وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾(الفرقان: ٦٣) أو يكتفي بقوله (سَلَامًا) وهو يقصد إظهار أنه جاهل، وأن القرآن أمرنا أن لا نرد على مثلك. وليس هذا مقصود القرآن أبدا، فأنت بذلك سببته كما سبك، وأصبحت أسوأ منه باستعمالك كلام الله في شتمه، وهذا للأسف يقع من العوام وبعض الملتزمين، وإنما كان المقصود بما جاء في القرآن أن نقابل السيئة بالصفح أو التجاهل أو بكلمة طيبة تقطع الشر وانقطاع الجدل.

ومن المصائب ما رأيته وسمعته يقع من الدعاة والملتزمين في أمور فيها ما فيها من تصغير لأمور الدين وشعائره مثل أن يتناول أحدُهم دعابة عن تعدد الزوجات، ويذكر في محتواها آية من القرآن، أو يذكر دعابة يذكر فيها نبيا من الأنبياء مثل من يحكي أن أحدهم يقول لآخر على الطعام احك لنا قصة يوسف ليشغله عن طعامه، فيرد عليه كان نبيا ومات.

ومما هو منتشر بين الناس ولا يدرون أنه من المصائب في دينهم وعقيدتهم التندر على النساء بحديث رسول الله ﷺ **(إنّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ)**[٤٩]، أو استخدام الحديث في التنقيص منهن، ولم يكن ذلك أبدا مقصد رسول الله ﷺ، فأول الحديث يقول **(وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ...)**، ومثل ذلك أيضا حديث رسول الله ﷺ **(مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ)** [٥٠]، فالتندر بهذا الحديث أو ذاك مما هو منتشر بين الناس وبين الملتزمين وهم لا يدرون أنه مما يضر بعقيدة التوحيد التي تقوم على تعظيم الله عز وجل وكل ما والاه، ثم يجلسون يتباكون على ما يحدث للمسلمين في شتى أنحاء الأرض، ولماذا يتأخر النصر؟ ﴿... قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ (آل عمران: ١٦٥.)

وغير ما شاهدته كثيرا من عامة المسلمين حين يقومون إلى الصلاة، فيقومون إليها وأحدهم يضاحك الآخر أو يمازحه، حتى وهم وقوف في الصف وإلى حين يرفع أحدهم يديه ليقول الله أكبر، وليس هذا من تعظيم الصلاة في شيء، وقد كان السلف يرتعدون حين يقومون للصلاة لعظمها، ولعظم من هم ذاهبون للوقوف أمامه.

وإذا كان هذا حال العوام والملتزمين فليس بغريب أن ترى وتسمع في بعض الفضائيات والأفلام تسفيها لأمور الدين وشعائر الإسلام، مثل الزواج والطلاق والأضحية،

٤٩ (رواه مسلم - كتاب الرضاع - 18 باب الوصية بالنساء -حديث رقم ٦٠/١٤٦٨)

٥٠ (صحيح البخاري- كتاب الحيض-باب ترك الحائض الصوم-حديث رقم ٣٠٤)

واستهزائهم بالحجاب والمحجبات واللحية وأصحابها، واستهزائهم بعلماء الدين وما إلى ذلك. بل وصل الأمر أنهم يتناولون ذاتَ الله سبحانه وتعالى بلا تعظيم ولا إجلال، وذاتَ رسول الله ﷺ بلا توقير، حتى قال أحدهم معلقا على الانتخابات (ده لو ربنا خد ٧٠% يحمد ربنا)-والعياذ بالله تعالى- وهذه وإن كانت زلة لسان، فإنما تزل الألسن وتسهل الزلة على قدر ما في القلوب من استحضار لجلال من يتحدث عنه، وفي إحدى الصحف الساقطة يُكتب عنوانا "هل مات رسول الله ﷺ بالزائدة الدودية ".

وهذا كله مما ضاع من تعظيم الله وإجلاله في القلوب، وتعظيم ما هو له. ولو أن القلوب امتلأت بتعظيم الله وإجلاله وما يتصل به، ما اجترأت على أن تتناوله بصورة ليس فيها تعظيم وإكبار ووقار، ولا تجرأت على أن تتناول ما هو لله مثل رسله وآيات قرآنه وملائكته ودينه وشعائره بشيء من الإصغار، أو أن يجعلوها في ثنايا ضحكاتهم ونكاتهم، **فالله وما والاه أعظم من ذلك.**

ولقد سمعت وشاهدت أحد الدعاة الكبار وهو يحكي قصةً عن شعيب المتطفل مع أحد الخلفاء، ما كان ينبغي له أن يرويها، ومختصرها أن أحد الخلفاء قد رمى له بحبة لوز فقال له شعيب {ثاني اثنين إذ هما في الغار(التوبة: ٤٠)} فأعطاه الثانية، ثم ما زال شعيب ينتقي من الآيات التي فيها زيادة في الأعداد ليأخذ بها زيادة من حبات اللوز. والسؤال هنا:

هل استخدام آيات القرآن في قصةٍ مثل هذه فيه شيء من التعظيم؟! وهل لهذا أنزل القرآن؟! وهل يصح أن تُروى مثل هذه القصص على لسان العلماء وإن كان يُقصد بها الترويح والتسلية بمتع الحديث؟! والقول الفصل والسؤال القطع:

هل رُوي أمثال هذه القصص والمواقف بسند صحيح عن أحدٍ من صحابة رسول الله ﷺ والسلف الصالح ؟!

إنّ القرآن الكريم أبلغ الكلام وأحسنه، وأعلاه وأشرفه، وهو كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، فعلى المسلم أن يحذر وهو يضرب الأقيسةَ والأمثال، ويحكي الروايات أن يتعدّى على كلام الكبير المتعال. والأصل ألا يُستخدم أبدا كلام الله إلا على وجه التعظيم أو في موقف إجلال وهيبة، أو رهبة، أو عظة وإرشاد، وما غير ذلك فممنوع.

ولتقريب ما يحدث منا في تعاملنا مع كلام الله سنسأل سؤالا: ما موقف أحدنا لو أنه سمع ابنه يتناول كلامه في ثنايا حديثه بين أصحابه بلا احترام أو تقدير، أو أن ابنا له يُدخل جُملا قالها في معرض دعاباته وضحكاته؟! ألم يكن ليغضب لما في ذلك من استهزاء به وقلة احترام؟ فما بالكم بالله وكلامه جلت عظمته وجل شانه.

لقد كان رسول الله ﷺ وصحابته والسلف أشد الناس تعظيما لله وشعائر الله وحرماته، ويُروى في ذلك الكثير:

يصفهم ابن عباس ﷺ فيقول لبعض أصحاب المراء والجدل: "أما علمتم أن لله عباداً أصمتهم خشية الله تعالى من غير عيّ ولا بكم، وإنهم لَهُمُ العلماء العصماء النبلاء الطلقاء، غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله تعالى انكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك، تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، فأين أنتم منهم؟"

أمّا عن حال رسولنا ﷺ في تعظيمه لربه فكان حالا لا يُوصف، فعن مُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّيرِ عن أبيه قال:

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ.» [٥١]

٥١ (صحيح بن حبان-كتاب الرقائق- باب قراءة القرآن -ذكر الخبر الدال على صحة ما تأولنا خبري أبي هريرة - حديث رقم ٧٥٣)

فهذه صورة تعظيمه ﷺ لله عز وجل وهو واقف بين يدي ربه، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، الموعود بالجنة في أعلى عليين، ولكنه التعظيم والخشية.

ومن ذلك أيضا أن أعرابيا أتاه فقال:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتْ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ «وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ» : وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا «وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ» وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ» [٥٢]

ومن شدة تعظيم رسول الله ﷺ لله عز وجل، اشتد انفعاله يوما على المنبر، حتى كاد المنبر أن يخر به.

عن عبدالله بن عمر: **«أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قرَأَ هذه الآياتِ يومًا على المِنبَرِ: {وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ والْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ والسَّمَواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ}** (الزمر: ٦٧). **ورسولُ اللهِ يقولُ هكذا بإصبَعِه يُحرِّكُها يُمجِّدُ الرَّبُّ جلَّ وعلا نفسَه: (أنا الجبّارُ أنا المُتكبِّرُ أنا المَلِكُ أنا العزيزُ أنا الكريمُ) فرجَف برسولِ اللهِ ﷺ المِنبَرُ حتّى قُلْنا: لَيَخِرَّنَّ به»** [٥٣]

٥٢ (رواه أبو داوود- كتاب السنة باب في الجهمية- حديث رقم ٤٧٢٦)

٥٣ (ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٣٢٧ • ورواه الإمام أحمد (٥٤١٤)

ومما يجب تعظيمه وتوقيره؛ **تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره**، وتعظيم سنته وحديثه، فالله أمر بتعزيره وتوقيره، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ ﴾ (الفتح: ٨ – ٩)

يقول عمرو بن العاص ﷺ: « **وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ** »[٥٤]

وروى أسامة بن شريك قال: « **أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ.**»[٥٥]

وأجمل من وصَفَ شأنَهم في ذلك عروة ابن مسعود الثقفي ﷺ حين بعثته قريش إلى النبي ﷺ في الحديبية قبل أن يُسلم، فلما رجع إلى قريش قال: « **أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ** »[٥٦]

وهذا كان حال الصحابة معه ﷺ في حياته ، أما عن حال التابعين بعد موته ﷺ :

---

٥٤ (أخرجه مسلم كتاب الإيمان - 54 باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج -حديث رقم ١٩٢/١٢١).

٥٥ (سنن أبي داوود-كتاب الطب- باب في الرجل يتداوى-حديث رقم ٣٨٥٥)

٥٦ (رواه البخاري- كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط- حديث رقم ٢٧٣١)

سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى: متى سمعت من أيوب السختياني؟ فقال: حج حجتين، فكنت أرمقه ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه.

وروى مصعب بن عبد الله فقال: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون، لقد كنت أرى محمدَ بنَ المنكدر وكان سيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن مُحَمَّد وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة.

وكان بعض التابعين يرى أن رفع الصوت في مجالس الحديث كرفع الصوت عند النبي ﷺ؛ لأن الحديث حديثه. قال حماد بن زيد رحمه الله تعالى: كنا عند أيوب السختياني فسمع لغطا فقال :ما هذا اللغط؟ أما بلغهم أن رفع الصوت عند الحديث عن رسول الله ﷺ كرفع الصوت عليه في حياته .

كان مالك بن أنس إذا أراد أن يخرج ليحدث الحديث توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوة، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: أوقر به حديث رسول الله ﷺ.

جاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى أنه سئل عن حديث وهو مضطجع في مرضه فجلس وحدث به، فقيل له: وددت أنك لم تتعن، فقال: كرهت أن أحدث عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع، وسئل ابن المبارك رحمه الله تعالى عن حديث وهو يمشي فقال: ليس هذا من توقير العلم.

وممن يجب تعظيمهم وإجلالهم **صحابة رسول الله** ﷺ، فيتعين احترامهم وتوقيرهم، وتقديرهم حق قدرهم، والقيام بحقوقهم ﷺ.

وقد خرج جرير بن عبد الله البجلي، وعدي بن حاتم، وحنظلة الكاتب ﷺ من الكوفة حتى نزلوا قرقيساء وقالوا: "لا نقيم ببلدة يُشتم فيها عثمان بن عفان"

ولما أظهر ابن الصاحب الرفضَ ببغداد سنة ٥٨٣ هـ جاء الطالقاني إلى صديق فودّعه، وذكر أنه متوجه إلى بلاد قزوين. فقال صديقه: إنك ههنا طيّب، وتنفع الناس. فقال الطالقاني: "معاذ الله أن أقيم ببلدة يُجهر فيها بسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم "، ثم خرج من بغداد إلى قزوين، وأقام بها إلى أن توفي بها.

وممن يجب توقيرهم، **علماء المسلمين**، تعظيما لدين الله وإجلالا لما يحملونه من العلم واعترافا بفضلهم، فقد قال رسول الله ﷺ: **فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**[٥٧]. فبقدر ما في قلب المسلم من تعظيم لدين الله سيكون توقيره لعلمائه وأهله من حملة القرآن، وعلى العالم وحامل القرآن أن يتذكر أن ذلك التوقير والاجلال لعلمه وللقرآن الذي يحمله في صدره لا لنفسه، ومن حق هذا العلم عليه ومن حق هذا القرآن عليه أن يحافظ على وقاره بين الناس إجلالا منه لهذا العلم ولهذا القرآن الذي يحمله في صدره، هذا مع تواضعه للناس وأن يكون لهم جَناح رفق ورحمة، وملاذا لضعفائهم ومظلومهم.

وينبغي للعالم وحامل القرآن أن يكون قدوة للناس في تعظيم الله ورسوله وشعائر الإسلام، فبقدر ما يحمله من تعظيمٍ لدين الله في قلبه سيظهر ذلك في تصرفاته وعلى جوارحه دون تعمد منه، وسيراه الناس عليه، وحينئذ ينمو في قلوبهم هذا الركن العظيم من أركان التوحيد قبل أن يدعوهم إليه، فالحال قبل المقال. أما إذا أضاع العالمُ وأهل القرآن في أنفسهم هذا

٥٧ (سنن الترمذي- 39 أبواب العلم - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة- حديث رقم 2685)

الركن من أركان التوحيد، فما يكون المنتظر من الناس حين ندعوهم للاستقامة على دين الله، وإلى تطبيق شريعة الله عز وجل؟!! ولا حول ولا قوة إلا بالله الغني العلي العظيم.

ومما ضاع بيننا أو كاد أن يضيع هو تركنا لتحية الإسلام واستبدالنا لها بتحية النصارى بقولنا صباح الخير ومساء الخير، وهذا بسبب عدم اعتزازنا وتعظيمنا لتحية الإسلام: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، فمن تعظيم الله والاعتزاز بدينه ألا نستبدل في مجتمعاتنا تحية أخرى بتحية الإسلام، ولكننا اليوم للأسف نجد من الناس من يرفع الهاتف فلا يسلم ولا يرد السلام، وهذا ما أتانا من عالم الغرب، وغرسَته فينا أفلام وفضائيات كان هدفها الأول إبعادنا عن ديننا، وصبغنا بصبغة غير صبغة الإسلام.

روى الطبراني عن ابن شهاب الزهري رحمه الله في قصة عمير بن وهب الجمحي لما قدم المدينة يريد قتل النبي ﷺ بعد غزوة بدر، فلما دخل على النبي ﷺ وأصحابه قال:

« أَنْعِمُوا صَبَاحًا - وَهِيَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ - قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَدْ أَكْرَمَنَا اللهُ عَنْ تَحِيَّتِكَ وَجَعَلَ تَحِيَّتَنَا تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهِيَ السَّلَامُ.

فَقَالَ عُمَيْرٌ: إِنَّ عَهْدَكَ بِهَا لِحَدِيثٌ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ» : قَدْ أَبْدَلَنَا اللهُ خَيْرًا مِنْهَا، فَمَا أَقْدَمَكَ يَا عُمَيْرُ؟.....الحديث»[٥٨]

فانظر إلى اعتزاز رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، وهذا ما ينبغي لنا أن نكون عليه أسوة برسول الله ﷺ وتعظيما لما علمنا الله ورسوله.

فهل بعد ذلك كله نحن معظمون لله ؟! وإذا كان هذا هو حالنا فما هو المنتظر من حالنا مع أوامر الله سبحانه وتعالى ومن العبادات التي افترضها علينا؟؟

٥٨ (المعجم الكبيرللطبراني-باب العين-عمير بن وهب الجمحي-حديث رقم ١١٩)

وللإجابة عن هذا التساؤل لا بد أن ننظر إلى حالنا عند الإقدام على فعل طاعة من الطاعات، هل نؤديها حبا وتعظيما وخشية؟ أم أن الطاعة أصبحت عادة من العادات نفعلها كل يوم دون استشعارٍ للهدف من أدائها؟ كذلك لننظر إلى حالنا أثناء أداء الصلاة والقيام لرب العالمين هل نستشعر عظمة من نقابله فنخشع في صلاتنا أم تشغلنا الأفكار والهواجس؟ وهل إذا قابلنا ملكاً من ملوك الدنيا صنعنا عنده مثل ما نصنع في صلاتنا؟ إذا أجبنا عن هذه التساؤلات فسنعرف يقيناً هل نحن معظمون لله أم لا.

وأما علاج ما نحن فيه فإن أنجع الدواء له هو الدعاء، فهو أنفع الأدوية وأقوى الأسباب متى ما حضر القلب وصدقت النية؛ فإن الله لا يخيب من رجاه.

فاللهم إنا نسألك تعظيمك والخوف منك، ونسألك توبة صادقة تعيننا على طاعتك واجتناب معصيتك.

وأخيرا .. ليعلم المسلم أن امتلاء القلب بتعظيم الله هو من أعظم العبادات القلبية، وهو أعظم من عبادات الجوارح، وليعلم أيضا أن أمور الاعتقاد لا مزاح فيها، وأن السخرية والاستهزاء بالله ورسوله وآياته من نواقض كلمة التوحيد، ولو كان هذا الساخر والمستهزئ هازلاً مازحا، وفي ذلك قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (التوبة: ٦٥ – ٦٦)

فمن استهزأ عامدا–ولو بالإشارة– بالله ورسوله وآياته كان مرتدا خارجا عن الإسلام.

التوكل على الله

التوكل من أعظم الأعمال القلبية وأشقّها، وتمكنه من قلب المسلم يُكسبه طمأنينة النفس وقوة الجأش والثقة بالله تعالى، وهو من أعظم الأعمال القلبية التي يجب أن يسعى المسلم لتحقيقها.

والتوكل هو قطع الاستشراف بالإياس من الخلق، وتفويض الأمر إلى الله –جل ثناؤه– والثقة به.

وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب، والتعلق بالله العلي القدير وحسن الظن به.

ونقل بن الجوزي عن بعضهم أن التوكل هو تفويض الأمر إلى الله ثقةً بحسن تدبيره.

وقال بن القيم: إن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله، أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

يقول علي كرم الله وجهه: يا أيها الناس، توكلوا على الله، وثِقوا به، فإنه يكفي مما سواه.

وقد جعل الله التوكل شرطاً في الإيمان فقال سبحانه:

﴿....وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ (المائدة: ٢٣)

فدل ذلك على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وجعله كذلك دليلٌ على صحة الإسلام، فقال سبحانه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس: ٨٤)

وفي المقابل فإن توكل المسلم على غير الله قد يكون شركا أكبر إذا كان معتقدا في حدوث النفع أو دفع الضر منه بذاته، وأقل أحواله أن يكون شركاً أصغر إذا توكل على السبب مع اعتقاده في الله النفع والضر.

ومثيل هذا الشرك الأكبر—وإن ندر في زماننا- هم هؤلاء الذين يعتقدون في أصحاب القبور فيتقربون إليهم في دفع الضر وجلب النفع، ومَن يعتمدون على من يظنونهم أولياء ويعتقدون أن برضاهم يستجلبون النفع ويستدفعون الضر، ويتوكلون عليهم فيما هو لله ولا يقدر عليه بشر مثل الرزق والنصر والشفاء، وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى الله تعالى، وأولياؤهم هم كل شيء عندهم، وهم وسيلتهم التي يعتقدون فيها، وهؤلاء لا ريب مشركون شركا أكبر.

وأما ما يصيب القلب بالتعلق بالأسباب التي تتعلق بقضاء مصالح الحياة الدنيا، والتي جعل الله ظاهرها في أيدي البشر فهذا من الشرك الأصغر، وهو من الشرك الخفي الذي يقع فيه أكثر الناس. فالتفات القلب إلى الأسباب وتعلقه بها شرك في التوحيد، لأن القلب لا يتوكل إلا على من يرجوه ويظن النفع منه، فمن نظر بقلبه إلى من يرجوه من سلطان أو مسئول أو مال أو نحو ذلك كان فيه نوع توكل على ذلك السبب.

والتوكل لا يجوز أن يجعل المؤمن منه شيء لغير الله ولو كان لفظيا، مثل توكلت عليك أو توكلت على فلان، وكذلك قوْل توكلت على الله ثم عليك، كل ذلك من الشرك في

الألفاظ، **لأن التوكل عبادة من التوحيد فلا يجوز جعل شيء منه للمخلوق** ولكن يقول: أعتمد على الله ثم عليك، أو يقول وكلت فلان وأنا موكلك من باب الوكالة، التي هي الاستنابة وهي جائزة بإجماع العلماء. فيُوكل الشخص أخاه المسلم في قضاء حاجة له من مصالح الدنيا، مع اعتماد القلب وتوكله على الله تعالى في تيسير ما وَكّل فيه هذا الشخص لقضائه.

ومما يقدح في التوكل أيضا ويضاده أن يستسلم المرء للأوهام، فيتطير ويتشائم فيرجع عن عمل قد عزم عليه إذا رأى شيئا أو سمع شيئا لا علاقة له بسفره، مثل من أراد السفر فرأى حين خروجه اناءً يسقط أو سمع صريخا في الشارع فيرجع عن سفره أو يؤجله تشاؤما، وهذا ينافي التوكل بل ينافي التوحيد ذاته، وقد قال ﷺ: **(الطِّيَرَةُ شِرْك، الطِّيرة شركٌ، الطيرة شِرْكٌ- ثلاثاً- وما منا إلا، ولكن اللهُ يُذْهبه بالتوكل)**[٥٩]، وفي رواية **(منْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ)**[٦٠]، ولذلك يجب على المؤمن إذا وجد ذلك في نفسه فليخالفها إيماناً بالله وتوحيدا به، ثم يخرج فيما عزم عليه، وعليه ألا يلتفت إلى ما وجد في نفسه، وعليه بالدعاء الذي أرشد إليه رسول الله ﷺ كما ورد في تكملة الحديث السابق: **(قَالُوا :يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟، قَالَ : تَقُولُ: "اللهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ")**[٦١]

والتوكل الكامل على الله هو أعلى درجات الإيمان، لأنه يجمع بين عبادات شتى من اليقين في الله تعالى، وشدة الإيمان به، مع إخلاص الرجاء له وحده، مع إفراغ القلب مما سواه، وأيضا إفراغ القلب من الأسباب التي سنها الله في كونه. ولأن التوكل لا يتم حتى يؤمن العبد بكمال ربوبيَّة الله تعالى وأولهيته، وما يتضمن ذلك من كمال الملك والتدبير

---

٥٩ (رواه أبو داود- أول كتاب الطب - 24 باب في الطيرة- حديث رقم ٣٩١٥)

٦٠ (المعجم الكبير للطبراني- باب العين أبو عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو-حديث رقم ٣٨)

٦١ (المصدر السابق)

والسلطان، والقدرة والتصرف، والمشيئة والقيُّوميَّة، والإحاطة وملْك الضر والنفع، وكل هذا من أركان التوحيد، وهذا التوكل مأمور به المؤمنون، وهم مأمورون أن يسعوا إلى تحصيله كما جاء في قوله تعالى: ﴿....وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (آل عمران: ١٢٢)

ولا يستقيم توكل العبد حتى يصلح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول.

وضعف التوكل إنما يكون من ضعف الإيمان بالله تعالى، وضعف يقين المرء بأن هذا الملكوت كله بيد الله جل وعلا يصرفه كيف يشاء، وأن الأسباب جميعها وهي من سنن الله في كونه بيد الله يسيرها بلطفه كيف يشاء.

فإذا علم العبد تمام العلم أن الله قادر قدير بيده كل شيء، وليس لأحد شيء معه، وامتلأ قلبه بذلك، فإنه يفوض الأمر إليه سبحانه، ويلتجئ بقلبه في تحقيق مطلوبه والهرب مما يسوؤه إليه، ويعتصم بالله وحده، فينزل حاجته به ويفوض أمره إليه، ثم يعمل السبب الذي أمر الله به والله كافيه. يقول الله تعالى:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ.....﴿٣٦﴾﴾(الزمر: ٣٦)

ويقول تعالى:﴿....وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ (الطلاق:٣)

والتوكل مقام جليل القدر عظيم الأثر، جعله الله سبباً لنيل محبته سبحانه، فقال تعالى﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾(آل عمران: ١٥٩).

وهو من صفات المؤمنين الصادقين، فقال تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ (الأنفال:٢)

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله – ﷺ – **« من قال يعني إذا خرج من بيتهِ : بِسم اللَّهِ توكّلت على اللَّهِ ، لا حول ولا قوة إلاّ بِاللَّهِ ، يقالُ له كُفِيت ووُقِيتَ ، وتنحَّى عنه الشَيطان »**[٦٢]

ولكن على المؤمن ألا يكون قوله (توكلت على الله) مجرد قولا باللسان، ولكن يجب أن يصدقه توكل القلب على الله.

وكما قلنا في الرجاء فإن التوكل لا ينفي الأخذ بالأسباب، بل من اعتقد ذلك فقد اعتقد باطلا، ولم يكن متوكلا، بل مُتّكلا عاصيا، لأن الله عز وجل أمر بالأسباب وحث عليها سبحانه، وأمر رسوله ﷺ بذلك وفطر العباد على الأخذ بها، فلا يجوز للمؤمن أن يعطل الأسباب، ودليل ذلك أن عمر بن الخطاب لقيَ ناساً من أهل اليمن فقال من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، فقال أنتم المتكلون، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله.

والأدلة من القرآن على وجوب الأخذ بالأسباب كثيرة جدا وهي بذلك من شروط التوكل على الله مثل قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ....۝٧١﴾(النساء: ٧١)،﴿..وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٧﴾(البقرة: ١٩٧)﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ..۝٢٥﴾(مريم: ٢٥)،﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ (الجمعة: ١٠)

٦٢ (رواه الترمذيّ-أبواب الدعوات -باب ما يقول إذا خرج من بيته ،حديث رقم ٣٤٢٦ وقال حديث حسن صحيح)

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴿٦٠﴾﴾(الأنفال: ٦٠،)
﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ..﴿٨٠﴾﴾(الأنبياء: ٨٠)

والأدلة من السنة النبوية كثيرة أيضا: فعن أنس بن مالك ﷺ قال: **« قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَ أَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَ أَتَوَكَّلُ؟ قَالَ:اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »**[٦٣]

وعن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: **« لَوْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمُ اللَّهُ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَعُودُ بِطَانًا»**[٦٤]

وعن المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ قال: **« مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»**[٦٥]

ومما يعين على تخلية القلب من الأسباب أنه ما مؤمن رجا مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنُّه فيه، لأن حقيقة التوكل تفويض الأمر إلى من بيده الأمر، والمخلوق ليس بيده شيء، فالتجاء القلب وطمعه في تحصيل المطلوب إنما يكون فيمن يملكه وهو الله جل وعلا، وأما المخلوق فلا يقدر على شيء استقلالاً بأي حال، والمخلوق نفسه قلبه وعقله بيد الله، وقد يكون سببا في ضياع ما كنت ترجو منه بدلا من انقضائها على يديه، والأمثلة على ذلك كثيرة يقابلها كل إنسان في شؤون حياته، ولكن لا ينتبه لها إلا من كان قلبه حاضرا مراقبا لأفعاله. فتجد المرء أحيانا يذهب ليقضي مصلحة في شؤون حياته وهو يحمل في قلبه أنه لو كان فلان هناك لقضيت له، فإذا الذي ظن أنه سيقضيها له كان سببا في توقفها أو خذلانه في مساعدته.

---

٦٣ (صحيح بن حبان باب الورع والتوكل- ذكر الإخبار بأن المرء يجب عليه مع توكل القلب الاحتراز بالأعضاء ضد قول من كرهه- حديث رقم ٧٣١. ورواه الترمذي- أبواب صفة القيامة والرقائق والورع - حديث رقم ٢٥١٧ ، واللفظ للترمذي)

٦٤ (صحيح بن حبان- باب الورع والتوكل- ذكر الإخبار عما يجب على المرء من قطع القلب عن الخلائق حديث رقم ٧٣٠) .

٦٥ (صحيح البخاري- كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده- حديث رقم ٢٠٧٢).

وأخيرا؛ يكفي في التوكل وعد الله سبحانه وتعالى بأنه يكفي عبده وهو حسبه إذا توكل عليه، كما جاء في الآيتين السابقتين:

﴿...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ...﴿٣﴾﴾ (الطلاق من الآية: ٣)

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ . .....﴿٣٦﴾﴾ (الزمر من الآية: ٣٦)

الإنابة

أما الإنابة فأصلها النوْب، وهي كلمةٌ واحدة تدلُّ على اعتياد مكان ورجوعٍ إليه.

وناب زيدٌ إلى الله تعالى: أَقبل وتاب ورجع إلى الطاعة، وأَنَابَ إِليهِ إِنابَةً فهو مُنِيبٌ.

وقيل : ناب: لزِم الطّاعة وأَناب: تاب ورجع.

قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿...وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾(ق: : من الآية: ٣٣)، راجع عن معاصي الله، مُقبل علي طاعة الله.

وقال ابن القيّم: الإنابة: الإسراع إلى مرضاة الله مع الرّجوع إليه في كلّ وقت، وإخلاص العمل له.

وحقيقة الإنابة هي عكوف القلب علي طاعة الله ومحبته، وطمأنينة النفس إلى ربها والإقبال بكليتها عليه.

وهي بذلك أعلى مقامات العبودية إن لم تكن أرفعها، وقد وُصف بها إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ (هود: من الآية ٧٥)

والإنابة مِنْ أَجلّ أَنواع العبادات، وهي أَعلى مقاماً من التوبة، فإن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، والنّدم على ما فات، والعزم أَن لا يعود إليه، والإنابة تدل على ذلِك وتدل على الإقبال على الله بِالعبادات. والإقبال على الله رجوع عمَّا لا ينبغي بالكلية، وقصد كل ما ينبغي من رضاه.

ودلائل الإنابة في القرآن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ...﴿٥٤﴾﴾ (الزُّمَر: من الآية ٥٤). وهذا أمرٌ إلهيٌ يقتضي الوجوب.

ويصف جل ثناؤه المؤمنين، بأنهم منيبون إليه فقال تعالى:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ (سورة الروم: ٣١)

وقوله تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾﴾ (ق:٨)

والعبد المنيب هو الراجع، والمراد هنا الراجع إلى الحق بطاعة الله، فإذا شغله شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال، فلا يفارقه حال الطاعة، وإذا إنشغل قليلا آب إليه وأناب.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (غافر:١٣)

وفي هذه الآية ذكر الله أن العبد المنيب هو الذي يتأثرُ بآيات اللهِ الدالةِ على عَظَمتهِ.

والإنابة هي صفة لازمة للمؤمنين والرسل وقد ذُكرت في مواضع كثيرة :

قال تعالى في ذكر شعيب عليه السلام﴿...وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾(هود: ٣٨).. وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام والذين معه﴿...رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾(الممتحنة: ٤). وقال عن عبده داود عليه السلام ﴿...فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾(ص من الآية ٢٤).

وقال تعالى في شأن عباده المؤمنين﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ﴾ (الزمر-١٧).

والإنابة إنابتانِ: الأولى **إنابة اضطرار**: وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

يقول الله تعالى:﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ .....٣٣﴾ (الروم:٣٣)، فهذا عام في حق كل داعٍ أصابه ضر، كما هو الواقع. وهذه الإنابة لا تستلزِم الإسلام دائما، بل يدخل فيها أهل الشرْك أيضا، كما قال تعالى في حقّ هؤلاء: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤ ﴾ (سورة الرُّوم: ٣٣، ٣٤)، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية **إنابة أوليائه المؤمنين**، وهي إنابة إلى الله والعبد في رَخاء، وهو في بحبوحَة، فهذه هي الإنابة الحقة، وهذه هي الإنابة التي يريدها اللهُ عز وجل: أن ينيب إليه العبد إنابة حب لا إنابة قهر، إنابة اشتياق لا إنابةَ اضطرار.

فهي إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: **محبته والخضوع له، والإقبال عليه والإعراض عما سواه،** فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- عن النّبيّ ﷺ قال: **« لَا تَمَنَّوْا الْمَوْتَ، فَإِنَّ هَوْلَ الْمَطْلَعِ شَدِيدٌ، وَإِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُ الْعَبْدِ، وَيَرْزُقَهُ اللهُ الْإِنَابَةَ »**[٦٦]

فالإنابة إلى الله من لوازم التوحيد التي يجب أن يتحلى بها المسلم تأسيا بالرسل والمؤمنين.

٦٦ (رواه أحمد- مسند المكثرين من الصحابة مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه- حديث رقم ١٤٥٦٤).

فالإنابة هي الإقبال بالكلية على الله وحده، وتخلص القلب من كل الشواغل، فيصبح شاغله المستولي على العبد بالليل والنهار هو مرضاة الله وذكره ولزوم طاعته، والبعد عن الصغائر فضلا عن الكبائر، ويصبح العبد ويمسي وهو ملتجئ إلى الله تعالى، باسط جناحي الذل بين يدي ربه فيكون عبدا منيبا.

والإنابة جزاؤها الجنة كما جاء في قول الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾(سورة ق: ٣٣، ٣٤)

والإنابة ليس بمعنى ترك الحياة الدنيا والاعتزال، وترك مخالطة الناس، ولكن معناها:

أن تكون في الحياة الدنيا وقلبك مشغول بالله عز وجل، مقبلا عليه إقبال حب وشوق، وخاشعا بين يديه، ومراعيا لحقوق الله وحقوق عباده، إخلاصا لله وطلبا لحبه ومرضاته، وقد اطمئن قلبك بالله دون الناس ودون الأهل، واكتفيت به دون العالمين موقنا باستيلائه على كل شيء، وإحاطته بكل شيء، وحينئذ تجد وُدا وتوفيقا بين الناس لم تعهدهما من قبل، وطمأنينة في الصدروطيبا في العيش لم تعرفهما، وبركة في كل شيء.

خلاصة التوحيد

وحقيقته أن كلمة "**لا إله إلا الله**" تقتضي من العبد إذا شهد بها أن يقوم بحقها، ومن حقها كل ما ذكرناه من الإخلاص لله ، والكفر بما سواه ، والتعظيم لله ، والخوف من الله ، والرجاء في الله ، وطاعة الله ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، فيصبح العبد حينئذ عبدا لله قد استشعر عبوديته لله وقام بها، فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له إلى دعاء ربه وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له، وهذا هو بعينه معنى الفرار إليه، قال تعالى:﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ (الذاريات-٥٠)

فعباد الله حقا لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج والرزق إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن في ضر ونفع ، وأنه المتصرف وحده بالملك والخلق لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: **حب كامل، وذل تام**.

ومنشأ القاعدتين هما: مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس التي تورث الذل التام.

وإن أقرب باب يدخل منه العبد على الله تعالى هو الإفتقار التام إليه والذل بين يديه، فلا يرى لنفسه حالا، ولا مقاما، ولا سببا يتعلق به، ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على

الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض، وعليه أن يعلم أن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك، وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يتداركه الله تعالى برحمته، فإذا كان العبد قد أقام طريقه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغفلة، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه بعفوه، ويغفر له ذنبه، ويشمله بلطفه حتى يختم له بخير خاتمة، ثم يدخله مدخل النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

الاعتدال في العقيدة

ذلك أمر في منتهى الأهمية لكل مسلم حتى لا يضل بعد هدى، ويهلك بعد أن اقترب من شاطئ النجاة. وإنّ أكثر مَن ضلوا في الأمة وابتدعوا فيها إنما ضلوا وابتدعوا بسبب إفراطهم أو تفريطهم في ركن من أركان التوحيد.

والمقصود بالاعتدال هو عدم الإفراط (المغالاة) أو التفريط (التقصير) في أي ركن من أركان التوحيد. مثل من يغالي في ركن من أركان التوحيد فيفهم غير المراد منه ويضعه في غير محله، أو يأخذ بركن من أركان التوحيد وينشغل به ويضيع آخر وهو لا يشعر.

فالاعتدال في الإخلاص لله يعني أن يُخْلص المرء في كل عمل صالح يرجو به الله سبحانه وتعالى فلا يجعل له شريكا في نيته، ولكن لا يعني الإخلاص ترك العمل خوفا من الرياء، فهذا من تلبيس إبليس لعنه الله. يقول الفضيل بن عياض: إن ترك العمل لأجل الناس رياء. فما دام الباعث للعمل بدايةً هو وجه الله تعالى فلا ينبغي للمسلم أن يتركه خوفا من وقوعه في الرياء، بل يجب عليه مدافعته، والاستمرار في العمل فذلك أخزى للشيطان.

والاعتدال في حب الله يعني ألا يجره الحب إلى تخيلات فاسدة في ذات الله، وتأويلات خارجة عن منهج السلف رضوان الله عليهم، أو وصف الله بصفات لم تثبت بالكتاب والسنة مهما ظن بحلاوة وصفه، أو تنزيهه تنزيها يُعطّل به صفاته. ولا يجره الحب إلى عبادة لم ترد عن رسول الله ﷺ مهما ظن الحُسن بعبادته تلك، لأن الله يُعبد بما شرع في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وأفعاله، ولم يَسمح لعباده أن يعبدوه على هواهم وكيف يريدون. فالله أمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

(هود: ١١٢). وتلك الآية أعظم دليل على أن الزيادة في دين الله من الطغيان، لأن أصل الطغيان هو الزيادة عن الحد، والحد الذي وضعه الله عز وجل هو ما أمر به سبحانه.

والاعتدال في الخوف من الله يعني ألا يصل به إلى أن يكون خوفا مذهلا يجعل العبد يسئ الظن بالله في حياته وأخراه فلا يرى له مكانا إلا النار، ولا يتوجس إلا سوء العاقبة في حياته خوفا من عقاب الله، حتى يضيع ركن الرجاء عنده في الله، ويفقد حسن الظن به وتوقع الخير والفرج منه في الدنيا، وحسن مثوبته وعفوه وكرمه في الآخرة.

والاعتدال في الرجاء في الله يعني ألا يحمله رجاؤه على أن يأمن من مكر الله، ويقع في معصية الله أمنا من عذاب الله وعقوبته، واتكالا على عفوه ورحمته، أو يحمله الرجاء في الله وحسن الظن به على الكسل في طاعة الله عز وجل.

والاعتدال في الولاء لله والبراءة مما سواه يعني أن توالي الله ورسوله والمؤمنين ودين الإسلام دون غيرهم، وأن تتبرأ من إتباع وولاية مَن سواهم دون إفراط يقع بسببه المرء في ما لم يُؤمر به.

فالتبرؤ لا يعني معاداة غير المسلمين بلا سبب ولا عداوة منهم، ولا يعني معاملتهم بالغلظة أو الإساءة إليهم مضيعا بذلك حقا من ركن الطاعة لله؛ فالله عز وجل قد أمر بالبر والقسط لكل من سالم المسلمين ولم يعاديهم، رحمة منه بهم لعلهم يُسلمون، وحلما منه عليهم لعلهم يرجعون إليه. وكل من يتسبب في أذى وضرٍ لغير المسلمين بغير حق مدعيا مجاهدة الكافرين فكأنما تألى على الله واعتدى على رحمته وحلمه بعباده، ويكفي في ذلك سوءاً تنفير الناس من دين الإسلام، وهذا مما يخالف حق الله على من آمن به. فالمؤمن يسعى ليكون كل الناس عبادا لله ويقربهم إليه لا أن ينفرهم منه ويبعدهم عنه. أما إذا بدا من غير المسلمين عداوة للمسلمين فعندئذ ينبغي على المسلم أن يتبرأ منهم قولا وفعلا

أيضا حسب ما بدا منهم دون إفراط أيضا. فشأن المؤمن دائما هو الحرص على هداية الناس إلى ربهم لإنقاذهم من النار.

والاعتدال في أن الله هو الرزاق، وأنه هو الذي ينفع، وهو الذي يضر يعني عدم ترك الأسباب وقد أمر الله بها وجوبا حين قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾(الملك:١٥)، وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾(التوبة:١٠٥)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ...﴿٧١﴾﴾(النساء:٧١). وقال ﷺ: **(احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ....)**[٦٧]، ومن يخالف كل ذلك فإنما يضيع أوامر الله عز وجل ورسوله ﷺ ، وليس هذا من الإيمان والتوحيد.

ومثل ذلك التوكل على الله؛ فالتوكل على الله لا يكون توكلا إلا مع الأخذ بالأسباب، وإلا أصبح اتكالا، وهو ما لم يأمر به الله، إلا أن تنقطع الأسباب تماما من بين يدي المؤمن فيصبح مضطرا إلى الله، متوكلا عليه، ومفوضا أمره بكليته إلى الله.

والاعتدال في كل أركان التوحيد يعني أن يقوم المسلم عليها جميعا بحقها كلها، فير اقبها في قلبه و أفعاله، مهتما بنفسه فيها، ومنشغلا بنفسه بها عن الناس، لا أن ير اقب الناس فيها، أو يحكم بها على أفعال الناس وتصرفاتهم ليضع نفسه حكما عليهم بالكفر والإيمان. فليس هذا من شأنه، ولا ينبغي له. إنما ذلك للعلماء الفقهاء الراسخين في العلم الثقات. وإنما واجب المسلم نحو الناس نصيحتهم وإرشادهم.

٦٧ (رواه مسلم حديث_ كتاب القدر - 8 باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله رقم 34/2664)

فالاعتدال في أركان التوحيد لا يقل أهمية عن كل ركن من أركانه، فلقد رأينا أناسا أفرطوا في ركن من أركان التوحيد فحملهم على الابتداع في دين الله، وعلى الإلحاد في صفات الله، ولقد رأينا أناسا أفرطوا في ركن من أركان التوحيد حتى كفّروا المسلمين وحملهم على سفك الدم الحرام.

فتوحيد المؤمن لله قائم على الأخذ بكل أركان التوحيد بلا تفريط في أي حق من حقوقها وبلا إفراط. وعلى هذا قام التوحيد، **بل على هذا قام الدين كله**، ومن ذلك عبادتنا وكل شيء نتقرب به إلى الله عز وجل؛ وتأمل حديث رسول الله ﷺ لما بلغه حديث النفر الثلاثة الذين أفرطوا في عبادتهم فقال ﷺ: «...**أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَ أَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَ أُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[٦٨]. فكيف إذاً يكون على صحيح التوحيد من تبرأ منه رسول الله ﷺ ؟!!.

ومِثلُ هؤلاء أيضا؛ الذي ينشغل بالدعوة إلى الله عن إصلاح أهل بيته وأبنائه وإعطائهم حقهم من وقته، مهما بدا له من حسن عمله أنه جهاد في سبيل الله. وعكس ذلك أيضا صحيح على من أوجب الله عليهم الدعوة الى الله من العلماء وأولى العلم والمجاهدين في سبيل الله. فالمؤمن لا يُضيع حقا افترضه الله عليه بآخر مثله إلا إذا كان مضطرا لا يستطيع الجمع بينهما، وليس بعد كلام رسول الله ﷺ فتوى أو فقه، فالعبرة ليست بكثرة الأعمال، بل بموافقتها لهدي رسول الله ﷺ، وفي هدي رسول الله ﷺ بركات السماء وخيرات الأرض للمؤمن وللأمة في الدنيا والآخرة.

فشأن المسلم هو الاعتدال، ليس فقط في دينه بل في حياته كلها بلا إفراط أو تفريط، ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ (الأعراف: ٣١)

٦٨ (صحيح البخاري- كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح- حديث رقم ٥٠٦٣)

وعلى هذا المنوال أيضا ينبغي أن تكون أخلاق المسلم. ومثال على ذلك؛ أن لا يطغى خلق على خلق آخر حتى يضيعه. فلا يطغى حلم رجل وهو خلق حسن على ألا يغضب إذا استبيحت حرمات الله مدعيا الحكمة والتأني. ولا يطغى صاحب جود بكرمه حتى يضر بنفسه أو بأهله ويضيع عياله.

فالاعتدال والتوازن في أركان التوحيد من الأهمية والخطورة بمكان بحيث يصح أن يكون ركنا من أركان التوحيد، وينبغي لذلك أن يتنبه له العلماء جيدا في تعليمهم الناس التوحيد، فهو أصل لا غنى عنه، وعليه يقوم الدين كله، وبفقده ضل كثيرٌ من المسلمين.

أهمية العقيدة في الإصلاح

(قل هو من عند أنفسكم)

لا شك أن العالم الاسلامي اليوم على اختلاف بلدانه يعاني اليوم من انتشار الفساد في جوانب كثيرة منه في الدين والدنيا، وفي مختلف طبقاته من المجتمع، وما زال المصلحون من الدعاة والعلماء فرادى وجماعات يحاولون إصلاح ما فسد في العالم الإسلامي منذ عشرات السنين.

وعلى اختلاف مناهج الدعاةِ والجماعات الإسلامية وأساليبهم وعظم تضحياتهم في سبيل غايتهم، فالمشاهد أنهم لم يستطيعوا حتى الآن النجاح فيما يريدون الوصول إليه، برغم أعدادهم الغفيرة وتضحياتهم المستمرة، بل وافتدائهم دين الله بأنفسهم وأموالهم.

وبرغم ما قدموه في مجاهدة أعداء هذا الدين والمفسدين والمنحرفين والظالمين والطغاة إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا حتى الآن في مكان واحد دولة قائمة للإسلام تقوم به كله من شريعة وأخلاق وقيم، وإذا استطاعوا في فترة من الزمن البدء في إرساء قواعدِ دولةٍ للدين إلا سرعان ما تعود إلى شأنها الأول، ويتولاها الظالمون مرة أخرى ويعلو فيها شأن الفاسدين أكثر من ذي قبل.

ولذلك لا بد للجميع من وقفة مع أنفسهم بعد تحليل دقيق لحال الأمة ومختلف فئات المجتمع للأمة الإسلامية، وأساليب الإصلاح التي يتبعها المصلحون.

والناظر إلى الدعاة والجماعات الإسلامية يرى أن بعضها قد صب اهتمامه على أنظمة الحكم فهو يسعى إلى إصلاحها أو تغييرها لعلمة أنها المقاوم الأول للإصلاح وللدعوة،

خاصة وأن عاطفة الناس ما زالت مع الاسلام، والبعض قد صب اهتمامه على إصلاح المجتمع فقط تحت حقيقة أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والبعض قد يأخذ بالطريقين في دعوته من إصلاح الحاكم أو تغييره وإصلاح المجتمع بدعوته وتربيته حسب رؤيته.

ولست هنا بصدد تفضيل فئة على أخرى، فظني أنه لو أفلحت فئة منهم فيما أخذوا به لنجحت في الوصول الى غاية الجميع وإصلاح المجتمع وإقامة دولة الاسلام، فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم كالدائرة التي تغذي نفسها ويصلح بعضها بعضا، ولكن هذا لم يحدث حتى الآن، ولذلك فهم جميعا مطالبون بوقفة مع النفس دون إلقاء اللائمة فيها على بعضهم أو الآخرين، وأيضا دون الركون إلى أن ما يحدث هو سنة الصراع بين الحق والباطل وأن النصر والنتيجة بيد الله، بل عليهم أن يقفوا وقفة يبحثون فيها عن أي تقصير من عند أنفسهم أو سوء فهم لواقعهم.

والواقع الذي نراه اليوم وتعاني منه الأمة بلا خلاف هو ابتعاد كثير من الناس عن الإسلام عقيدة ومنهجا، وانتشار المناهج الفاسدة بينهم، وغلبة الحكام الظالمين الذين يرفضون تطبيق دين الله منهجا وشريعة والذين يقاومون الدعوة إلى ذلك بكل ما أوتوا من قوة وظلم أحيانا، وهم العائق الأول لتطبيق الإسلام، خاصة وأن في بعض البلدان استطاع المصلحون أن يصلوا إلى سدة الحكم بمساندة شعوبهم المسلمة، ولكن سرعان ما تفشل تجربتهم بعد حين بسبب أعوان من أزاحوهم عن الحكم، وقد تكررت تلك المحاولات في بلدان شتى وظروف مختلفة وأزمنة مختلفة.

فلا يزول طاغية أو ظالم حتى يعقبه آخر، وإذا استطاع المصلحون إزاحة ظالم ليشتّموا لفترة قصيرة رائحة الحرية حتى يرتد عليهم بعد حين أظلم منه وأشد نكالا عليهم، ثم يُضيّق عليهم أشد مما كانوا فيه من قبل.

والعاقل ينبغي أن يتفكر ويعيد النظر فيما يحدث...

فلا بد للفشل المتكرر من أسباب لم يدركها المصلحون والدعاة، أو أسباب لم يعطوها حقها من الدعوة.

والسؤال: لماذا سرعان ما يغلب الظلمة بعد حين على المصلحين ويستطيعوا إزاحتهم بسهولة وتنصيب ظالم آخر؟!

لو افترضنا أن الناس مائة ألف يحكمهم طاغية، فلن يستطيع كل الناس أن يقوموا صارخين في وجه الحاكم الطاغية ينهونَه عن ظلمه خوفا من شدة بطشه وطغيانه، فقد يقوم بذلك مائةٌ منهم أو ألف، والبقية أضعف إيمانا من أن يقوموا بذلك وهذا في أكثر الشعوب أو قل كلها.

ولكن أن يقوم للسلطان مائة أو ألف رجل يتحدوْنه فيُعرّضون رقابَهم للأذى وبقية المائة الألف يصل العجز بأحدهم أن يقول كلمة الحق ظاهرة واضحة قوية بلا ملاينه أو مراوغة لمديره في العمل خوفا من أن يَحرمه علاوة أو أن يتلمس له الخطأ فيخصم منه يوما أو يومين من راتبه.

أن يعجز أحدهم من أن يقف لرئيسه في العمل عندما يراه قد تعدى الحق إلى الباطل متحديا له لما قد يجره عليه من أذى!! وأي أذى يخاف أكثر مما يخافه

على فقدان بعض رزقه وبعض النصب في الذهاب والإياب إن صَرَف عمله إلى مكان آخر.

فإذا كان هذا حالهم أليس حقيق بهم أن يكثر هؤلاء الظالمون فيهم وفي طبقاتهم لأنهم لا يجدون من المجتمع دفعا ولا إنكارا ؟؟!.

والسؤال هنا، هل الطاغية وملأه يخيفهم مائة أو ألف رجل وهم محاطون بطبقات من الظالمين الذين قد نموا وثبتوا في ثنايا مجتمعٍ يخاف أغلبيته العظمى من مجرد قول كلمةٍ يقولها أحدُهم لن يصيبه أذىً من ورائها أكثر من خسارة شيئ من ماله أو تعرضه لبعض المضايقات؟

أضرب هذا المثل لكي نعلم جميعا أن مجاهدة رأس الفساد والظلم والانشغال به بعيدا عن مجاهدة الفاسدين الصغار أو أعوان الظلمة إن لم يكن آخرها الفشل فستكون أمدها طويلا جدا وبتضحيات عظيمة جدا أكثر أضعافا من أن نصرف جهدنا الأكبر في القضاء على الظالمين الصغار الذين يثبّتون رأس الظلم في مُلكه. وأنا لا أقصد ترك رأس الظلم، فلا بد في لحظة ما من مواجهته وتحديه، ولكن المقصود أن نعلم جيدا أنه لن ننجح في مواجهته والتغلب عليه إلا إذا قطعنا عليه شرايين قوته من خلال القضاء على الظالمين من الطبقة الأدنى إلى الأعلى منها حتى ينحصر هو في فئة قليلة لو لم تستقم –والأغلب ستستقيم طوعا أو كرها– لسهُل إزاحتها.

إن الناظر في التاريخ يجد أن معظم ثورات الشعوب إلا القليل منها لم تأت بالخير على الشعوب التي قامت بها، بل إن في أكثرها استطاع الظالمون أن يأتوا بآخر منهم، أو انتقل الحكم من فئة إلى فئة أخرى أكثر ظلما لم تُعرِ الطبقة الدنيا من الشعب أي اهتمام بعد أن استخدمتهم في غرضها وفي بعض الأحيان زادت معاناتهم.

والسؤال هنا كيف السبيل للقضاء على الظالمين الصغار في طبقات المجتمع؟

كيف السبيل للقضاء على مدير أو رئيس فاسد في مصلحةٍ ما وهم منتشرون في ثنايا المجتمع، وفي معظم الأحيان يظهر فسادهم على شكلٍ بسيط جدا مثل عدم الإنصاف أو التعسف في بعض الأوقات وليس كلها؟

هل سيخرج لهم المائة أو الألف رجل يتحسسونهم ويبحثون عنهم ليحاربوهم؟

بالطبع هذا لن يحدث لأنه غير عملي وغير منطقي؟ إذن فما السبيل؟

السبيل الوحيد هو المجتمع نفسه؛ وكما ذكرنا فإن كان عامة الناس ليس لديهم من قوة الإيمان وشدة العقيدة ما يكفي لأن يُعرّضوا أنفسهم للهلاك في مواجهة رأس الظلم، لكنهم بلا شك يستطيعون أن يواجهوا هؤلاء الفاسدين الصغار الذين لن يُسببوا لهم كثيرَ ضرر وإن أصابهم!

ولكن لماذا في و اقعنا المعاصر لا يفعلون ؟

لا يفعلون لأن أحدهم في عقيدته وإيمانه بأن الله هو الرزاق أضعف من أن يقول كلمة تسبب له حسْب ظنه نقصا أو أذىً في رزقه من رئيسه في العمل!

لا يفعلون لأن أحدَهم في عقيدته ويقينه بأنه لا يستطيع أحدٌ أن يمسه بضر سوى الله أضعف من أن يقول كلمةً يظن أنها ستجر عليه شيئا من الأذى!

لا يفعلون لأن أحدَهم بضعف يقينه بأنه لن يصل إليه نفع إلا من الله يقف خاضعا لغيره رجاء أن ينال منه نفعا !!

ولا ينصرون الدعاة وأهل الحق بكلمة ولو كانت خافته، لأن أحدَهم يهتم بلقمة عيشه واستقرار حياته أكثر من دينه!

بل أحيانا كثيرة لا يحبون الدعاة وأهل الحق، ويصدقون فيهم كل كذب، ويتلمسون لهم كل خطأ، لأن أحدَهم لم يدري في إيمانه معنى الحب في الله والبغض في الله!

وباختصار فإن عوام الناس لا يفعلون لأنهم لم يتعلموا بالقدر الكافي أول شيء في الدين وهو العقيدة مع أن كثيرا منهم يُصلّون ويتصدقون ويُكثرون من الحج والعمرة، وفي كثير منهم حميةٌ لقضايا المسلمين، وفيهم من هو أمتن خلقا من الدعاة أنفسهم!! وإن كان الحال كذلك فلا عجب أن يكثر الفاسدون في طبقات هذا المجتمع، ويكثر الظلم وينتشر النفاق والمداهنة. ومجتمعا كهذا لن يكون عونا أبدا للمصلحين بل سيكون عائقا أمامهم وإن كان الناس معهم بعواطفهم وألسنتهم.

لقد فهم بعض الدعاة والملتزمين قول الله سبحانه وتعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ...﴿١١﴾﴾ (الرعد: ١١). أنه على الاستقامة بمعنى أداء الصلوات والبعد عن المنهيات والعلاقة الروحية بالله تعالى، وكانوا يركزون بشدة على هذه المعاني، وهذه المعاني هي التي تدور بخَلَدِهم عندما يقولون للناس"أن صلاح حالنا هو بالعودة إلى الله"، وهو أيضا ما يدور بخلد الناس عند سماعهم لهذه الآية أو تلك الموعظة. وبرغم صحة ما سبق لكن هناك ما هو أهم من ذلك كله وهو العقيدة؛ العقيدة التي إذا كان ثمةَ نقصٍ ولو يسير فيها فلن يُجبر بأي حال وبأي طاعة ولن يغفرها الله إلا بتصحيحها نفسها، ولكن نقصا فيما سبق من الصلوات والبعد عن المنهيات قد تجبرها النوافل وكثرة الاستغفار والذكر.

العقيدة التي تحمل في ثنايا أركانها قوة الإصلاح ومحاربة أي فساد، بل كل الفساد، وذلك لأن السبب المباشر لوجود أي فساد في أي مجتمع مسلم هو نقص أو ضعف في ركن من أركان العقيدة فيهم، فحتى إهمال الصلاة ليس سببا مباشرا في الفساد، ولكن ركنا مثل الرجاء إذا لم يكن خالصا لله في قلوب الناس فستجد المجتمع موصوما بالنفاق وإن كانوا من المصلّين، وإذا امتلأ المجتمع بالنفاق ساد الناسَ المنافقون وهم أشر الفاسدين.

وركنا مثل اليقين في أن الرزق بيد الله وحده إذا فقده الناس فستجدهم عبيدا لمن يملك لقمة عيشهم ساكتين عنه وعن فساده وأذاه، ثم يدفعهم خوفُهم على أرزاقهم إلى كراهية مَن يُعرّض أرزاقهم إلى الخطر بسبب مناجزته للفاسدين أو مجاهدته للحاكم وإن كان جهاده لتحكيم الشرع وإعلاء العدل أو رفع الظلم عن هؤلاء الناس أنفسهم.

هذا ما لم تلتفت إليه بعض الجماعات الإسلامية في جهادها لإصلاح المجتمع حتى التي وضعت العقيدة منها في أول أولويات دعوتها ومنهجها، لأنهم لم يستوعبوا كل أركان العقيدة في دعوتهم للناس، ولم يستطيعوا تفصيلها لهم أو شرحها بشكل يصل إلى قلوبهم وتعيها عقولهم. إلى جانب أن تلك الجماعات التي اهتمت بالعقيدة في دعوتها صبت اهتمامها على عبادة القبور والأولياء ودعائهم والتوسل إليهم والإلحاد في أسماء الله وصفاته وهذا مما لا شك فيه من لب العقيدة، ولكنّ النسبة العظمى من الناس كانت مصابة في عقيدتها في ركن آخر مثل ركن الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، وركن الرجاء، وركن الطاعة، وأن الله بيده وحده الرزق والنفع والضر، وليست هذه الأركان بأقل أهمية من سؤال الأولياء والمقبورين، فلقد قال ﷺ: (**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم** ....)[٦٩]. فمن الناس من يستعبده المال فيستعبده كل من جعل اللهُ بيده

٦٩ (رواه بن ماجه-كتاب الزهد (9) باب القناعة حديث رقم ٤١٦٩ - وأخرجه البخاري حديث رقم (٢٨٨٧) باختلاف يسير)

المال أو جعل بيده سبب رزقه، وفي ذلك فساد أي فساد. هذا إلى جانب أن هذا الفساد الناتج عن ضعف اليقين بالرزق أكثر انتشارا. أما الفساد الناتج عن ضياع الولاء والبراء فقد لاقى منه الدعاة أنفسهم كثير الأذى على أيدي الناس حين افترق الناس فِرقا وتمايزوا، وكان لا بد من الإنحياز، فانحاز كثير منهم إلى من يجب عليهم التبرؤ منهم، وعادوا من يجب عليهم موالاتهم ومحبتهم.

وأهم من تعليم الناس العقيدة هو تكرارها عليهم باستمرار، فالأجيال تتعاقب ولا بد لهم مَن يؤصل فيهم كل أركان العقيدة على الدوام، كما أن فِتن الدنيا في المال والنساء، وفتنة الجاه والسلطان، وفتن مناجزة أعداء الدين لا تنقطع، وهي تهز العقيدة هزا في قلوب المؤمنين والدعاة أنفسهم فضلا عن الناس، والشيطان واقف لتوحيد الناس خاصة بالمرصاد، ولذلك لا بد من تثبيتها ودكها باستمرار في قلوب المسلمين جميعا بما فيهم دعاتهم، وإلا ستجد بعد فترة من الثبات والهُدى قد تبدأ الفئة المؤمنة نفسها في الانحراف عن خط العقيدة الذي وضعه الله للمؤمنين فيتبعوا سُبُل الكافرين، ثم يكون بعد ذلك هلاكهم، لأن الله لا يقبل أبدا التفريط في شيء واحد من العقيدة ولا يغفره، وأوعد على ذلك أشد الوعيد ولو كان شيئا يسيرا (وليس في العقيدة شيئ يسير)، وليس بمستغرب إن قلت أن بعض الدعاة والجماعات قد داهنوا في عقيدتهم ورضوا بما لم يكن ينبغي لمسلم أن يرضاه، فكيف إذن يتنزل النصر وتقوم الأمة من كبوتها وينكشف الظلم عنها؟!!

هذه هي أهمية العقيدة التي تقوم على كلمة التوحيد **"لا اله الا الله"** والتي يغفر الله بها الذنوب ولو كانت مثل زبد البحر، والتي أظن أننا ما زلنا غافلين عن إدراك حقيقتها كما أدركها صحابة رسول الله ﷺ عندما نطقوا بها والسلف الصالح من بعدهم فتسيدوا الدنيا والأمم، ولن يعود للمسلمين مجد الا بعد ادراكها إدراكا كاملا ولكل أركانها، ودون إهمال لأي شيئ منها.

خاتمة

اعلم أخي المسلم تمام العلم أن كلمة "لا إله إلا الله" هي الكلمة التي قامت بها السموات والأرض، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهى محض حق الله على جميع العباد، وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدنيا والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار في الآخرة، وهى المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الوحيد الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهى كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهى العمود الحامل للفرض والسنة، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة.

وروح هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جلّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يُحب عبادةً سواه، ولا يُحب غيره عبادة إلا ما كان تبعا لمحبته وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يُخاف سواه، ولا يُرجى سواه، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُرغب إلا إليه، ولا يُرهب إلا منه، ولا يُحلف إلا باسمه، ولا يُنذر إلا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يُطاع إلا أمره، ولا يُتحسب إلا به، ولا يُستعان في الشدائد إلا به، ولا يُلتجئ إلا إليه، ولا يُسجد إلا له، ولا يُذبح إلا له وباسمه، و يجتمع ذلك في حرف واحد: وهو أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة. هذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وحقيقة القيام بها، كما قال تعالى:(والذين هم بشهاداتهم قائمون)(المعارج: ٣٣)، فيكون المؤمن قائما بشهادته في قلبه ومصدقا لها في عمله، ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها.

واعلم أن مجرد نطق اللسان وعلم القلب بالحق لا ينفع صاحبه إن لم يقترن به عمل القلب، مثل محبة القلب له، وإتباع القلب له، ثم تصديق ذلك بعمل الجوارح عند وجوب الأفعال، بل من أشد الناس عذاباً عالم لم ينفعه الله بعلمه.

واعلم أخي أن من أعظم فضائل التوحيد في الدنيا أنه يُحررَ العبد من رقّ المخلوقين، ومن التعلق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العزّ الحقيقي، والشرف العالي، فيكون بذلك مُتعبِداً لله تعالى، فلا يرجو سواه ولا يخشى غيره، ولا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه .

ومن فضائله أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب، وتحقق تحققاً كاملاً بالإخلاص التام فإنه يُصير القليل من عمله كثيراً، ويضاعف ثواب أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب .

واعلم أخي المسلم أن التوحيد شجرة تنمو في قلب المؤمن، فيسبق فرعها ويزداد نموها ويزدان جمالها كلما سبقت بالطاعة المقربة إلى الله عزّ وجلّ، فتزداد بذلك محبة العبد لربه، ويزداد خوفه منه وتوكله عليه.

واعلم أن التوحيد إذا كمل في القلب فإنه يمنع دخول النار بالكلية، وسبب لدخول الجنة برحمة الله، وهي الفضيلة العظمى والغاية المرجوة، وهو الفوز العظيم في الآخرة.

جعلنا الله وإياكم من أهلها والسلام عليكم ورحمة الله

فهرست

إهداء..... ٢

تنويه هام للقارئ..... ٣

مقدمة و تمهيد..... ٤

" أشهد أن لا إله إلا الله..... ٢٥

الإخلاص و اليقين..... ٣٥

الكفر بما سوى الله (لا إله) الا الله..... ٤٥

الطاعة..... ٥٦

الرجاء..... ٦٢

الخوف والخشية..... ٧٠

الولاء و البراء..... ٨٥

الحب في الله والبغض في الله..... ٩٧

النافع هو الله..... ١٠٨

الحب والقبول..... ١١٦

تعظيم الله عز وجل..... ١٢٤

التوكل على الله..... ١٣٦

الإنابة..... ١٤٣

خلاصة التوحيد..... ١٤٧

الاعتدال في العقيدة..... ١٤٩

أهمية العقيدة في الإصلاح..... ١٥٤

خاتمة..... ١٦٢